محمود الشرقاوي

صور من الجزائر

الناشر



مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد (عماد الدين سابقا)



إهـــداء ...

إلى الشعب الجزائري المناضل . . .

إلى مصطفى ومنى محمود الشرقاوي

أبناء الجيل الجديد ،

الذي تعلق عليه الآمال . . .

أهدي هذه الصفحات . . من أمجاد الجزائر .



كلمات

لكل شعب خصائص تميزه ، وتبق له امتداد حياته عبر التاريخ ، وقد تكون هذه الخصائص ضئيلة سطحية فيندثر الشعب فى خضم الأحداث والغزوات والحروب ، كما أنها تكون كبيرة عميقة متأصلة فيبقى الشعب حياً نابضاً قوياً رغم كل ما يلم به من محن وأحداث .

والشعب الجزائرى بين شعوب العالم له خصائص قوية عميقة متأصلة.

والدراسة العابرة أو المشاهدة السريعة ، تلفت الجائل فى أنحاء الجزائر إلى هذه الحقيقة . وهى أن هذا الشعب قوى جاد عامل ، فبعد حرب ضارية مع الغزاة الذين احتلوا أرضه فى ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ ، رفع رأسه ، واستعاد قوته فى قدرة باهرة . .

ونحن إذا قلبنا صفحات التاريخ الجزائرى المجيد فإننا نجد فيه صوراً رائعة للكفاح البطولى ، فعندما هاجم الغزاة أرض الجزائر تصدى لهم الشعب وقاومهم مقاومة عنيدة بقيادة عبد القادر الجزائرى ، ورغم نقص المعدات التى كان يفتقر إليها جيش عبد القادر فقد استمرت المقاومة بشدة لمدة سبعة عشر عاماً ، عقد أثناءها عبد القادر معاهدة هدنة مع فرنسا ، واعترفت بدولته ، وبعث قنصلا يمثلها لدى الدولة الجزائرية ، وكانت تلك الهدنة ـ فى الحقيقة ـ خديعة لجأ إليها

الجيش الفرنسي بعد أن تكبد خسائر جسيمة ، وتوالت عليه الهزائم أمام الجيش الجزائري المناضل ، فاغتنم فرصة الهدنة لتنظيم صفوفه ، وطلب النجدة من فرنسا . أما بالنسبة لعبدالقادر فقد أتاحت له الهدنة فرصة توطيد أركان دولته ، وتنظيم جيشه ، فأقام مصانع للسلاح وصك النقود باسمه ، وكون دواوين لتسيير شئون الدولة ، وبعث الوفود داخل البلاد لحث الناس على الجهاد ، وأوفد البعثات الدبلوماسية إلى البلاد المجاورة ، وإلى تركيا ومصر يطلب مساعدتهما ، ولما تمكن العدو من تنظيم جيشه نقض المعاهدة وعادت الحرب من جديد ، وتواصلت المعارك ، وفي النهاية انتصر الباطل على الحق ، ووطد الاستعمار الفرنسي أركانه في البلاد ، بعد أن دمر البيوت ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ .

ولما استقر الأمر وضع يده على أملاك الشعب ، وأجلى السكان من الأراضي الخصبة ، وأصدر قوانين وتشريعات لتدعيم ظلمه وظلامه واستبداده ، ومحاولة محو الشخصية الجزائرية من البلاد ، بيد أن الشعب بقي محافظا على شخصيته مدافعا عنها بكل ما يملك من طاقات وقدرات ، ونتيجة لذلك استمرت الثورات ضد الاستعمار الفرنسي ، فكانت بعد ثورة عبد القادر الجزائري سنة ١٨٣٠ ، ثورة أولاد سيدي الشيخ

سنة ١٨٦٤ ، وثورة المقرانى سنة ١٨٧١ ، وثورة لاله فاطمة سنة ١٨٥٨ ، وثورة الأوراس سنة ١٩١٦ وغيرها من الثورات التى هزت دعائم أركان الاستعمار ، حتى قام الشعب بثورته الكبرى فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ التى كانت فى مستوى طموح الشعب الذى التف حولها يؤيدها ، ويذكى من لهيبها ليحرق به المعتدين ..

ورغم نقص الإمكانيات ، فإن الثورة مضت فى طريقها تدمدم الأرض تحت أقدام الإستعمار ، ودفع فيها الشعب ثمنا غاليا ، هو مليون ونصف المليون شهيد ، وآلاف الديار المخربة ، بالإضافة إلى جميع ألوان العذاب والتنكيل التى ذاق مرارتها .. وكان أبطال الجزائر يخوضون المعركة المحتدمة بينهم وبين العدو ، وشعارهم : النصر أو الإستشهاد ..

وانتصر الحق ، وزهق الباطل ..

وخرج جيش التحرير الوطنى الجزائرى منتصراً ظافراً ، وبجانب التنظيم العسكرى لجيش التحرير الوطنى ، كانت جبهة التحرير تقوم بمهمة التوجيه السياسى وتنظيم صفوف الشعب . وقد شعر العدو بخطورة الموقف ، لجند جميع إمكانياته ، فارتفعت أعداد قواته إلى مليون جندى ، فضلا عن الشرطة والعملاء . واستخدم كل الأسلحة لإخماد ثورة الشعب ، ولكن محاولاته كلها باءت بالفشل ..

وتحررت أرض الجزائر ..

وارتفعت ألوية النصر على الأرض العربية المناضلة ..

ومضت الثورة الجزائرية فى طريقها ، تعيد صنع الحياة على أرض الجزائر بالحرية والحق ، بالكفاية والعدل بالمحبة والسلام .

وإن الشعب الجزائرى يملك من إيمانه بالله وإيمانه بنفسه ، ما يمكنه من فرض إرادته على الحياة ليصوغها من جديد وفق أمانيه ..

◦ ◦ ◦

وهدف هذا الكتاب هو توضيح حقائق الحياة فى الجزائر الجديدة. وحقائق الحياة فى أى بلد من بلاد العالم تهم القارىء العربى . لا لأنها نوع من التعريف ، ولكن لأنها نماذج من حياة الشعوب ، ونحن الآن نبنى وطناً جديداً ، والجزائريون يبنون أيضاً وطناً جديداً بعد حرب قاسية مدمرة محت القرى والمدن وأكلت عشرات الألوف من البشر .

◦ ◦ ◦

وقد سبق أن قدمت للقارىء الكريم كتابين عن الجزائر ، هما : الجزائر مشكلة دولية (١٩٥٧) والجزائر كفاح أمة ومستقبل شعب (١٩٦٢) .

ويسعدنى أن أقدم هذا الكتاب عن الجزائر الجديدة ، بعد أن

زرتها فى سنة ١٩٦٥ . فقد أعجبت بالشعب الجزائرى الذى يعمل جاهدا بكل طاقاته وإمكانياته ، ليبنى مجتمعه الجديد ، وسط ظروف متناهية فى صعوبتها متخلفة عن عهود الاستعمار ، ولكن الشعب تمكن بصدقه الثورى وبإرادة الثورة المتيدة فيه ، أن يغير حياته تغييراً جوهرياً وعميقاً فى اتجاه آماله الإنسانية الواسعة ..

وأرجو أن يعبر هذا الكتاب عن هذه الصورة التى عشت معها .. وأتمنى أن يرى فيه القارىء العزيز ما يرضيه ..

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق ؟

محمود على الشرقاوى

الفصل الأول

بلاد الأحـــرار

كانت الجزائر في التاريخ القديم تؤلف مع تونس ومراكش وطناً واحداً هو «الوطن البربري» نسبة إلى البربر وهم سكان شمال أفريقية الأصليون، وتجمع بين هذه الأقطار وحدة العنصر والتاريخ والدين والجغرافية.

وأهلها يتحدرون من أصل سامي وينتسبون إلى مازيغ بن كنعان.

وقد أطلق المصريون القدماء على هذه البلاد «أماتي» أي عروس المغرب، وسماها اليونانيون «بالهيسبيريا» أي المغرب، ومن هنالك أطلق العرب والساميون قاطبة عليها اسم المغرب.

وعرف المغرب من قبل أن يعرف الإفرنج «بلاد إمازيغ» أي الوطن الحر.

وقد عرف الأمازيغ بعد ذلك باسم البربر، ولقد حاول ابن خلدون أن يعلل ذلك باستعجام الكنعانيين لهم، وحاول غيره أن يعلله باستعجام الرومانيين. وسواء صح هذا أم لم يصح فإنه يدل على أن كلمة بربر كانت تدل في لغة الكنعانيين والرومانيين على العجمة أو الكلام غير المفهوم بالنسبة إليهم.

ولكن يبدو أن هذا الإطلاق كان سابقاً، وأن وجوده هو الذي كون الكلمة في اللغة الرومية أو الكنعانية إن صح ما يدعيه الباحثون.

وإذن فما أصل كلمة البربر ؟

جاء في كتاب « تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر » : أن النسابين قد إختلفوا في نسب البربر . . . والذي ذهب إليه المحققون كابن حزم وابن خلدون وغيرهما أنهم من بني كنعان ابن حام بن نوح عليه السلام ، واتفقوا على أن شعوبهم وبطونهم يجمعهم أصلان عظيمان وهما برنس وماد غيس ويلقب بالأبتر فيقال لشعوبه البتر كما يقال لشعوب برنس البرانس وهما على الأصح أخوان لأب وهو برير بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام . وشعوب البرانس يجمعهم سبعة أصول وهي أزداجه ومصموده وأوربه وغجيسه وكتامه وصنهاجه وريغه . ويجمع شعوب البتر أربعـــة أصول وهم أداسه ونفوسه وضريسه ولواء الأكبر . . » .

ويقول المؤرخ مومسان في كتابه « تاريخ الرومان » أن من الأغاني الدينية القديمة في روما التي كانت تصحب رقص الكهنة على شرف مارس إله الحرب هذه الأغنية :

ليكتف مارس الجبار . .

أرقصوا على السدد ،

قفوا ، سيروا .

فكلمة بربر تدل على السرعة والمسير . وقد عرف فى كتب العصر الأول أن المؤرخين أطلقوها على البرابرة المقيمين على شاطىء النيل .

ويقول رينان : إن عائلة من الشعوب الناطقة بالبربرية التى كانت تمتد من مصر وحتى من البحر الأحمر إلى السنغال . ومن المتوسط إلى نيجيريا ، ويبدو أن البرابرة والتوارجة يمثلون الليبيين والنوميديين « الرحل » القدماء . ومن المعروف أنه يوجد فى شعب النيل واد يسمى بوادى البربر .

إذن فالإطلاق ورد على هذه العناصر ذات العائلة اللغوية الواحدة من جهة السرعة فى كلامها أو إقامتها بشاطىء النيل السريع . أو لأنها كانت تمثل القبائل الرحل الذين ينتقلون من مكان إلى مكان آخر . ومن هنالك دخلت فى اللغة الرومية والكنعانية

ومهما يكن الرأى فهى تسمية قديمة قبل اليونان وقبل الرومان وأحرى قبل العرب الذين استعملوا هـــذا الإسم أيضاً قبل الفتح الإسلامى ، فقد جاء فى شعر امرىء القيس هذان البيتان :

على لا حب لا يهتدى بمناره
إذا سافه العود النباطى جرجرا
على كل مقصوص الذنابى معاود
بريد السرى بالليل من خيل بربرا

وهذا الإشتقاق اللغوى وحججه تؤكد وحدة العناصر التى تقيم فيا بين البحر الأحمر والمتوسط وتمتد للسنغال ونيجيريا. وهذه العائلة الإفريقية هى التى امتازت بحضارتها وحبها للحرية ونضالها من أجل حياة كريمة، ومستقبل أفضل..

ولقد شهدت هذه البلدان هجوماً أجنبياً واحداً، وهجرة مشتركة من الشرق حيناً ومن الغرب حيناً آخر، بيد أنها تمكنت فى كل أوقاتها أن تحتفظ بمشخصاتها الإقليمية، وتدمج فى عائلتها الفاتحين والمهاجرين حتى تغمرهم ذهنيتها وأخلاقها وعاداتها وتقاليدها، وبذلك حفظت تبلورها القومى وكيانها المسدود فى وجه كل غاصب مهما كانت قوته..

° ° °

وكانت الجزائر فى التاريخ العربى القديم تسمى بالمغرب الأوسط إلى أن تدخل الأتراك العثمانيون سنة ١٥٠٠ م لإنقاذ الجزائر من إحتلال الأسبان، ونظموا مع رجال المغرب الأوسط كافة البلاد فى سلك إدارة مركزية موحدة، وحينئذ اتخذوا بلدة ذات روعة وجمال، وموقع إستراتيجى ممتاز، عاصمة لها تدعى «جزائر بنى مزغنة». وقد اختطها بلكين بن زيرى الصنهاجى وكان يتردد إليها من منازله بالمسيلة ونزلها بنوه من بعده ثم اختصت بنى مزغنة بطن من صنهاجة وبهم اشتهرت.

وفي القاموس « جزائر بني مزغنة » بلدة بالمغرب ثم أطلق اسم الجزائر على سائر بلاد المغرب الأوسط . ولما عقد إسماعيل المنصور العبيدي لزيري بن مناد الصنهاجي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة على بلاد تاهرت وبلاد شلب عين ولده بلكين لولاية الجزائر وغيرها فاستوطنها واهتم بشأنها واجتهد في عمرانها ، فأخذت في الحضارة والتمدن حتى طار ذكرها في الآفاق . وتناغى الملوك بالاستيلاء عليها جيلا بعد جيل إلى أن صارت قاعدة ملك البلاد . وقد استولى عليها الموحدون سنة ثمانين وأربعمائة . وفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة دخلت في حوزة بني حفص ملوك افريقية . ثم صارت لبني زيان ولم تزل وطناً لبني مزغنة خلفاً عن سلف إلى أن استولى عليها الأسبان سنة ست عشرة وتسعمائة واشتدت وطأته على المسلمين . وكان عرّوج المعروف بربروس الأول قد استفحل أمره وأخذ جيجل إحدى مراسي تونس من يد أهل جنوا بإيطاليا ، فبعث إليه سالم بن الصنهاجي أمير بني مزغنة يشكو إليه أمره ودخل الجزائر من جهة البحر وحاصر الأسبان في حصنهم المعروف ببرج الفنار وضيق عليهم الخناق ثم اقتحم الحصن بجيوشه وهزمهم هزيمة منكرة ، واستولى على الجزائر وجاء في « كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر » وصف لمدينة الجزائر ، قال :

عليك الجزائر عج نحوها ... وداوى بطيب شذاها العلل
وشاهد قصوراً أشيدت بها ... وأمكنة نزهـــة المقل
فكم من علوم متنوعة ... يضع نشرها بالدروس فسل
وكم مشكلات أزال الغطا ... فحول بهم سار ضرب المثل
وكم فاضل قد حوته وكم ... همام يصول وفرد وصل
وكم بددوا شمل جمع كفو ... ر ببيض المواضي وسمر الأسل
وجيش كمي وصخب الجيا ... د وحزم وعزم يفد القلل
أذاقوا البلاد بجلب العدا ... أساري وغص الفضا والجبل
وكم من حصون أعدت بها ... لدفع عدو طغى فانجدل
فسر قاصداً بلدة قد ثوى ... بها الفضل حقاً ونيل الأمل
تفاخر مصر وفاساً بها ... وتونس ذات البها والحلل
فيا رب صنها من المزعجات ... ومن كل شر وضر نزل
وأبق علوماً وتقوى بها ... لجيل فجيـــل إلى المنتقل
بجاه النبي الرســـول إلى ... الخلائق حتى الهداة الأول
عليه صـــلاة من الله ما ... تألق برق وودق هطل

ومن مدن الجزائر :

تلمسان : وهي مدينة قديمة اختطها ملوك بني يفرن من زناته

واتخذوها عاصمة ملكهم عندما عمروا المغرب. ثم جاء الفتح الإسلامى وهى عاصمة لهم، وهم الذين سموها تلمسان، وهى بلغتهم مركبة من كلمتين تم وسان ومعناها تجمع اثنين أى البحر والبر. ولم تزل على ما كانت عليه إلى أن استولى عليها عبد المؤمن بن على أمير الموحدين سنة أربعين وستمائة، فندب العمال لإصلاح ما انثلم من أسوارها وعمرانها، وجعل ولايتها لأولاده فصرفوا همتهم فى إعمارها واتخذوا الصروح والقصور بها. وكان من أشدهم اهتماماً بذلك أبو عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن وامتدت أيام ولايته فيها فشيد بناءها ووسع خطتها، ثم وليها من بعده أبو الحسن بن أبى حفص ابن عبدالمؤمن فزاد فى رفعتها، وبنى بها الدور والقصور.

ولما نزلها آل زيان واتخذوها عاصمة لهم اختطوا بها الربوع البديعة والقصور المشيدة، وغرسوا فيها الرياض المونقة، وأجروا خلالها الأنهار المتدفقة. فأصبحت من أعظم بلاد المغرب الأوسط ورحلت إليها الناس من كل فج عميق، ونفقت فيها أسواق البضائع، ونشأ بها العلماء. وقد مدحها الشعراء، ويغنى عن الإسهاب فى وصفها ماذكره المقرى فى نفح الطيب، ويقول فيها الأمام ابن مرزوق:

بلد الجدار ما أمر نواها   كلف الفؤاد بحبها وهواها
يا عاذلى كن عاذرى فى حبها   يكفيك منها ماؤها وهواها

مدينة وهران :

تقع على ساحل البحر المتوسط . اختطها ملوك مغراوة قبل الإسلام وامتد بها العمران ، ولم تزل على ذلك إلى أن ملك عبد الله الملقب بالمهدى مدينة تاهرت وولى عليها دوّاس بن صولان الكتامى ، فزاد في رقعتها وامتد عمرانها .

وفى القرن الرابع بنى جامعها الكبير أبو بلكين بن زيرى من ملوك صنهاجة .

وفى سنة خمس عشرة وتسعمائة استولى عليها الأسبان وانتزعوها من يد كلمون آخر بنى زيان ، ولما تولى محمد المجاهد حكم الجزائر ، بعث برسالة إلى محمد باى الكردى حاكم معسكر لثالثة يحثه على الجهاد لتحرير وهران . فقام محمد باى بشن عدة هجمات على المدينة ، ثم حاصرها ، وأخذ فى حفر الخنادق من حولها ، وبناء الاستحكامات . وقد حدث زلزال شديد فى جميع المغرب الأوسط ، وكان من نتيجته سقوط أكثر دور وهران ومات حاكمها . فطلب ملك أسبانيا من والى الجزائر عقد هدنة لمدة شهر فأجابه الوالى إلى ذلك ، ولكن الأسبان غدروا بالمسلمين ، فشنوا حربا ضروسا على الأسبان . . وقتلوا منهم الكثير ، ودخل المسلمون مدينة وهران . .

وأرخ فتحها الحاج عبد القادر بن السنوسى بقوله :

بشرى لنا قد بلغنا غاية الأرب   بفتح وهران ذات العجب والعجب
أرخت للقوم ذاك العام مبتدراً   قالوا فا الشهر منه يا أخا العرب
فقلت فى نظم ما راموا أؤرخه   وهران طار لها الإسلام فى رجب

مدينة قسنطينة : أصلها لقبائل كتامة ، وقد دخلها الفينيقيون ملوك الشام لما خرجوا إلى أفريقية من صور سنة ثمانمائة وست وثمانين قبل الميلاد ، واسمها فى القديم سيرتا ، وكانت عاصمة أوربال النوميدى سنة أربعمائة وثمان وعشرين بعد الميلاد واستولى عليها وعلى تلك النواحى الوندال من أسبانيا ولم يزل ملكهم فيها إلى أن استردها المسلمون .

وتعد الجزائر بموقعها الجغرافى الممتاز على البحر المتوسط ملتقى حضارات الأمم المختلفة ، فقد تعاقبت عليها فى مختلف العصور الحضارة المصرية التى أسسها الفراعنة . ومما يدل على أن سكان الجزائر كانوا على صلة بالمصريين القدماء رسم أثرى لأحد آلهة المصريين اكتشف أخيراً بالجزائر .

والحضارة الفينيقية التى فى عهدها أسست مدينة (قرطاجنة) الشهيرة التى ناطحت روما وطاولتها على الساحل الشمالى الشرقى من تونس كما

أسست فى عهدها مدن أخرى على سواحل الجزائر كعنابة ، وبجاية ، وجيجل ، وتنس .

والحضارة الرومانية التى عمت شواطئ البحر المتوسط قابلها الشعب الجزائرى بمقاومة عنيفة ، وذلك لأن الرومان لم يكادوا يضعون أقدامهم فى هذه المنطقة حتى سقط القناع عن وجوههم وبدت نواياهم السيئة وعزمهم على استغلال مقدرات البلاد لصالحهم .

ولقد حاول بعض المؤرخين المستعمرين أن يؤكدوا نجاح روما فى شمال أفريقية بيد أن الأدلة التاريخية كلها مجمعة على أن الفشل كان حليف السياسة الرومانية فى المغرب العربى ، وقد أكد مرسيه وشارفيريا وفورنيل هذا الفشل الرومانى الذريع .

قال بواسيه : « إن روما لم تحاول قط أن تصبح الوطن الأم ، وإنما كانت تستغل المغلوبين فى أوربا وفى أفريقية ، وهى لم تقدر قط على أن تكون حاملة للحضارة ولا للمدنية ، ولقد حكمها ملوك البربر الذين ثاروا أحسن مما حكمت هى نفسها » .

وجاءت حضارة جماعات الوندال بعد اختلال أمر الرومان واستشراء فسادهم ، ثم حضارة البيزنطيين الذين استعمروا البلاد أكثر من قرن وكانوا خلاله مع الشعب فى صراع مرير لم تهدأ عاصفته طيلة هذه المدة .

فتح العرب الجزائر سنة ٧٠١ ، فاكتسحت الحضارة الإسلامية جميع الحضارات التى تقدمتها . وقد وجد الشعب الجزائرى فى الإسلام ودعوته أداة للتحرير القومى والاستقلال الوطنى ، إلى جانب الانعتاق الفكرى والروحى . ولم تكن الدعوة الإسلامية فى نظر الشعب إلا امتداداً لعقائد الوحدة الإلاهية التى تنسجم مع طابع الوحدة الذى يريده ويعمل له ..

وقد تم للمغاربة بعد ذلك فتح أسبانيا بقيادة البطل المسلم طارق ابن زياد ، فحقق الآمال العريضة التى كانت روما قد حطمتها من قبل . ولم يمض إلا قليل حتى فتح جزيرة أيبيريا ، وشيدت دولة إسلامية بين ربوعها وهناك قامت حضارة زاهرة ، لا مثيل لها فى ذلك العهد فضلا عن أنها كانت مدرسة منها تخرج قادة أوربا فى نهضتها الحديثة .

وقد ظل المغرب العربى يأتمر بأوامر الأمويين ومن بعدهم العباسيين منذ الفتح الاسلامى حتى خلافة هرون الرشيد ، حيث توالت على الحكم بعد ذلك سلالات مجيدة ، منها بنو الأغلب الذين أقاموا دولة الأغالبة فى تونس ، والفاطميون الذين فتحوا مصر وشيدوا مدينة القاهرة ، والمرابطون الذين أسسوا مدينة مراكش وحكموا أسبانيا ، والموحدون الذين صار المغرب فى عهدهم دولة قوية تمتد من طرابلس الغرب إلى شواطىء المحيط الأطلسى .

وفى القرن الخامس عشر الميلادى إنقسمت امبراطورية الموحدين إلى عدة ممالك ، وظهرت إذ ذاك تلك الوحدات السياسية المعروفة إلى اليوم باسم تونس والجزائر والمغرب .

ثم ظهرت الجزائر بصورتها الحالية وحدودها الراهنة . وأخذت تعنى عناية فائقة بالقوة البحرية ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى تمكنت من السيطرة على غرب البحر المتوسط زهاء ثلاثة قرون ، فكانت الجزائر دولة كبرى ترغب الدول فى صداقتها إلى أوائل القرن التاسع عشر .

وكانت فى الجزائر حضارة زاهرة سجلها التاريخ فى صفحاته الخالدة ومن أبرز مظاهرها تقدم الصناعة ، ورواج التجارة . والتوسع فى الزراعة ، وانتشار الثقافة ، وازدهار الحياة الفنية .

فكانت ثروات الجزائر المعدنية مثل النحاس والحديد تستغل على نطاق واسع ، فيصنع منها الأسلحة والتحف . وكانت الجزائر تصدر الغلال والزيتون والتين والتمر والنحاس والخشب والصوف والشمع ومواد الغذاء .

ويقول كتاب «تاريخ أمم البربر» : إن ريف الجزائر عظيم الخصوبة والجبال غنى بقمحه وخضرواته وفاكهته وأزهاره .

فالسهول والتلال مكسوة بزرع ذي منظر رائع الجمال ، وهي دائمة الخضرة ، لأن رطوبة الأرض الدائمة الري والسقيا تحمي أوراقها من الحر في الصيف ، ودفء الشتاء واعتداله يجنبها السقوط في ذلك الوقت ، أما الكروم فمحصولها يثير الدهشة .

ومن الأرض ما ينتج ثلاث غلات في السنة وتثمر الحدائق الغناء التي يبلغ عددها مائة وعشرين ألفا ، محصولا وافرا يدعو إلى الاعجاب .

وكانت الحياة الفنية في الجزائر متقدمة تقدماً كبيراً ، وخاصة فن العمارة ، بما يشمل المدنية والعسكرية ، ففي الجزائر قصور بديعة فاخرة ، ومساجد رائعة .

أما العلوم والفنون فكانت مزدهرة ، فكان هناك ٢٠٠٠ مدرسة ، وأربع جامعات في كل من الجزائر وقسنطينة وتلمسان ومازونا تضم ١٨٠,٠٠٠ طالب في حين كان عدد سكان الجزائر إذ ذاك ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة .

يقول الكاتب الفرنسي (لم . بولاد) في كتابه « تعليم الأهالي في الجزائر » :

[كانت الجزائر فيما مضى تضم معاهد علميـة عظيمة الشأن ، فالفلسفة والآداب والعلوم والطب وقواعد اللغة والقانون الإسلامي

وعلم الفلك . كل هذه العلوم كان يقوم بتدريسها أساتذة كبار من الجزائريين أنفسهم ، كما كانت هناك مدارس متعددة ، متخصصة في تعليم القضاء الشرعي والعلمي ، وكان الملوك يختارون مستشاريهم من صفوة المتعلمين من خريجي تلك الجامعات] .

* * *

كانت الجزائر منذ أوائل القرن السادس عشر مطمع أحلام عدة دول أوربية لاحتلالها ونهب ثرواتها . فقد شنت عليها عشرات الحملات من مختلف الدول الأوربية كأسبانيا وانجلترا والدانمرك . لكنها كلها باءت بالفشل الذريع وتحطمت أحلام الدول الاستعمارية أمام المقاومة الباسلة للشعب الجزائري المناضل .

وقد تمكنت فرنسا في سنة ١٨٣٠ من احتلال الجزائر .. ولكن الشعب الجزائري حمل سلاحه ، وخاض عدة معارك مريرة ضد قوات الغزو الفرنسي ، حتى تحررت أرض الجزائر العربيـــة وخلصت لصاحبها الشرعي الشعب الجزائري ...



الفصل الثاني

في ركب الكفاح

لم تكن الثورة فى الجزائر ثورة ضد الاستعمار الفرنسى فحسب ، وإنما كانت حرب تحرير شاملة تستهدف تحطيم حلقة رئيسية من حلقات الاستعمار العالمى ، والقضاء على نظام عتى عمره قرن ونصف قرن ، وإقامة نظام يضمن حق الإنسان الجزائرى فى حياة حرة كريمة . .

والثورة الجزائرية ثورة كاملة لها عقيدتها الثورية ، وبرنامجها السياسى والاجتماعى ، ولها استراتيجيتها . . وهى ثورة تهدف إلى إقامة جزائر جديدة مستقلة وإلى إقامة مجتمع جزائرى جديد على أسس الحضارة الثلاثة وهى : الحرية والديموقراطية والاشتراكية .

ولقد اشتعلت الثورة العربية فى الجزائر فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، وغمر الجزائر يومها منشور الثورة التاريخى والذى قال :

« الى الشعب الجزائرى ...

إلى المكافحين فى سبيل القضية الوطنية .. إليكم نتوجه بندائنا فأنتم الذين ستحكمون علينا أو لنا ، ولنوضح لكم الأسباب العميقة التى دفعتنا إلى الكفاح ، ونشرح لكم برنامجنا ونبين لكم صحة آرائنا ومغزى حركتنا التى هدفها دائماً هو تحقيق الاستقلال الوطنى فى نطاق الشمال الإفريقى . ولنزيل تلك البلبلة التى يعمل على إذكائها الاستعمار وعملاؤه من الاداريين والسياسيين المتعفنين . وإننا نعتبر قبل كل شىء أن

الحركة الوطنية قد دخلت مرحلتها النهائية بعد مراحل طويلة مرت بها، وأن الهدف من كل حركة ثورية هو إيجاد الظروف المواتية لعمل تحريرى .

ونحن نرى الآن أن الشعب فى النطاق الداخلى قد اتحد تحت شعار الاستقلال والعمل ، وأن الجو فى النطاق الخارجى مناسب ، ويساعدنا على أن نحصل على مساعدة إخواننا العرب ، وأن الحوادث الثورية الجارية اليوم فى كل من مراكش وتونس تبين بوضوح كيف يكون الكفاح التحريرى لشمال أفريقية . وبهذا الصدد نود أن نقول أننا كنا منذ زمن طويل أصحاب فكرة وحدة الشمال الأفريقى وتوحيد الكفاح والعمل من أجل التحرر والوحدة المنشودة . ولكن هذه الوحدة لم تتحقق مع الأسف إلى اليوم ، وأصبحنا نرى اليوم كلا من تونس والمغرب قد أخذ يسلك بعزم طريق الكفاح المشترك بينما تخلفنا نحن عن المسير وبقينا نعانى آلام تأخرنا ونتحمل عواقب من فاتهم الركب .

وهكذا تنكبت حركتنا الوطنية الطريق بسبب أعوام مضت عليها من الخمول والعمل البطىء ونتيجة للتوجيه المنحرف . وانعدام التأييد الواجب من الرأى العام ، مما جعل الحركة الوطنية تنكمش يوما بعد

يوم أمام فرح الإستعمار الذى يظن أنه أحرز انتصاراً كبيراً ضد القوى التى تتقدم الكفاح الجزائرى .

إن الساعة خطيرة ، وأمام هذه الظروف التى تهدد بأن تصير ميؤوساً منها ، رأى نفر من الشباب المسئولين والمناضلين الواعين ، وهم مؤيدون من طرف أغلبية العناصر الوطنية الشريفة ، بأن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذى صارت فيه بسبب خلافات شخصية وبإعلان الكفاح إلى جانب إخوانهم التونسيين والمقاومة فى المعركة الثورية الحقيقية .

ونحن نؤكد بهذا الصدد أننا مستقلون عن الجانبين اللذين يتنازعان النفوذ والسيادة الحزبية ، وأن حركتنا التى قامت وفق المبادىء الثورية ليست موجهة ضد أحد إلا الاستعمار الذى هو عدونا الوحيد الأعمى الذى رفض دائماً أن يمنحنا أدنى حرية بوسائل الكفاح السلمى ، ونحن بذلك نكون قد وضعنا المصلحة الوطنية فوق كل الإعتبارات الشخصية ونحن نعتقد أن فى كل ما سبق الأسباب الكافية لكى تتقدم حركتنا الجديدة تحت اسم جبهة التحرير الوطنى ؛ كى تتجنب كل الأخطار المرتقبة وتفتح باب الكفاح لجميع الوطنيين الجزائريين من الأحزاب وكل الحركات الجزائرية الخالصة ليتمكنوا من خوض معركة التحرير دون أى اعتبار آخر » .

ولم يعد هناك بيت أو كوخ فى الجزائر لم يقرأ هذا المنشور ، ولم يعد هناك جزائرى وطنى لايحفظه عن ظهر قلب فقد رسم طريق الخلاص الذى أنتظرته الجزائر طويلا . .

ومضت الثورة تدمدم الأرض تحت أقدام الإستعمار . . وقدمت أرواح الألوف من أبناء الشعب كفارة على مذبح حرية الجزائر ، حتى أشرقت شمس الحرية على أرض الجزائر المناضلة . .

وعلى الصفحات القادمة ، سنقدم بعض النماذج لبطولات فذة ، صنعها أبناء الشعب العربى فى الجزائر . .

بطلة ... إسمها نفيسة

طاف قائد الحصن على جنود الحامية فى المواقع التى حددها لهم بدقة ، وتلقى منهم فرداً فرداً القسم العظيم الذى ارتبطوا به تجاه الوطن وتجاه الله وتجاه أنفسهم ، بأن يدافعوا عن حصنهم إلى آخر رمق فى حياتهم .

وواصل العدو هجومه ، وواصلت الحامية دفاعها المجيد . .

من هم المدافعون ؟ ومن هم المعتدون ؟ . .

مرت فرنسا بأزمة اقتصادية خانقة إثر ثورة سنة ١٧٨٩ ، وأوصدت انجلترا ودول أوربا دونها أبواب العالم ، ولم تلق نجدة إلا من الجزائر . وقد اشتركت خزانة الدولة وبعض التجار فى تمويل عملية الإنقاذ فساعدت بذلك الثورة الفرنسية مساعدة فعالة فى التغلب على أعدائها .

وبلغت ديون فرنسا للجزائر ١٨ مليونا من الفرنكات فى سنة ١٨١٩ ، لم تسدد فرنسا شيئا منها ، بيد أنها أرسلت لجنة تحقيق بحجة أن القمح الوارد ناقص أو فاسد ، واستطاعت هذه اللجنة أن تجمل هذا الدين سبعة ملايين فرنك فقط ! !

وقد ألح الداى حسين بن حسن على قنصل فرنسا لدفع هذا الدين ، وفى ٢٩ ابريل سنة ١٨٢٧ أبلغ القنصل الداى أنه لا جدوى من الكتابة إلى فرنسا ، لأن الحكومة الفرنسية ليس فى نيتها أن تدفع شيئا ، فغضب الداى ، وطلب من قنصل فرنسا الخروج من البلاد ، فلما رفض ، قيل إن الداى حسين لطمه بمروحته .

واعتبر هذا الحادث إهانة أصابت الشرف الفرنسى واتخذ ذريعة لإعلان الحرب على الجزائر ، ووقف شارل ملك فرنسا يقول فى خطاب العرش فى ٢ مارس سنة ١٨٣٠ (إن العمل الذى سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون بإعانة العلى القدير !) .

وكانت حرب الجزائر إحدى الوسائل التى أراد بها شارل العاشر أن يشغل الشعب الفرنسى عن مشكلاته المعقدة فى الداخل ووسيلة يضمن بها استهلاك ملايين المتعطلين من شعبه ، وليس من شك أن من التجنى على التاريخ أن نقول : إن الجزائر كانت فى حاجة إلى نشر المدنية على أيدى الفرنسيين . فقد كانت الجزائر ذات مدنية وحضارة قديمة : فالصناعة متقدمة ، والتعليم منتشر ، وليس من أسباب عدوان فرنسا أيضاً ضرب قنصل فرنسا بمروحة الداى ، فالواقع أن هذه الأسباب مفتعلة

وإنما تقوم الأسباب الحقيقية على حاجة الاستعمار إلى الاستغلال والنهب مع الدافع الإقتصادى إذ أنه حينما حطمت فرنسا الاقطاع فى ثورة سنة ١٧٨٩ ، بدأت تسير فى طريق الثورة الصناعية ، واستعمال الآلة فى الانتاج الصناعى .

ومن المعروف أن النظام الرأسمالى ، يحتاج دائماً إلى أسواق جديدة لتصريف منتجاته ، بسبب القيود التى يفرضها على القوة الشرائية للمستهلكين وما تؤدى إليه من أزمات دورية ، هى أزمات فائض الانتاج الذى لا يجد مشترياً .

وعلى ذلك فقد كان إنتقال النظام الرأسمالى إلى المرحلة الصناعية يملى الحاجة الشديدة إلى أسواق جديدة ، لتصريف منتجات الآلة المطردة الزيادة ، كما يملى الحاجة إلى المواد الأولية التى تغذى هذه الصناعة باطراد .

ويؤكد هذه الحاجة أن فرنسا فقدت خلال القرن الثانى عشر أكثر مستعمراتها : كندا فى أمريكا ، والهند فى آسيا ، ومصر فى أفريقية ، وقد إستولت عليها انجلترا .

يضاف إلى ماسبق أن فرنسا خرجت من حروب نابليون مضطربة إقتصادياً وسياسياً ، فكانت حرب الجزائر محاولة من شارل ملك

فرنسا للتخلص من البطالة الاقتصادية ومحاولة لخلق جيش اعتاد قتل الحرية ومحاربة كل شعب تستعمره فرنسا ، لكي يصبح الجيش أداة طيعة لقتل الحرية فى بلاده .

أما الدافع السياسي ، فإن فرنسا فى القرن التاسع عشر طردت من أكثر مستعمراتها كما تقدم آنفاً ، وتوالت عليها الهزائم فى أوربا فى آخر عهد نابليون . وبدأت أحلامها تنهار فى القارة حينا عقد مؤتمر لندن بعد هزيمة نابليون فى وترلو ، ومن ثم أخذت تحاول إستعادة مكانتها وسلطانها فحاولت إحتلال أسبانيا ، ولكنها ردت خاسرة ، ثم بدا لها فى الأفق نور الأمل الذى داعب خيالها طويلا ، وهو احتلال الجزائر ...

وكان الأسطول الجزائرى قد أرسل فى سنة ١٨٢٧ لمساعدة الأسطولين المصرى والعثمانى فى حرب المورة .

فلما كانت موقعة « نافارين » دارت الدائرة على الأساطيل الثلاثة : العثمانى والمصرى والجزائرى وحطمت ، وخلا بذلك الجو لفرنسا بعد أن إنهار الأسطول الجزائرى الذى كان يقف لها بالمرصاد ، فأخذت ترقب الفرصة السانحة لغزو الجزائر .. وكانت حادثة القنصل المفتعلة هى الحجة التى تذرعت بها لحرب الجزائر ..

وفى ١٣ يونيو سنة ١٨٣٠ ، كان شارل قد أعد أسطولا ضخما يتألف من ١٠٣ سفينة تحمل ثلاثة آلاف مدفع و ٣٤,٠٠٠ جندى و ٣٨٣ سفينة لنقل المؤن والذخيرة ، ونزل الجيش الفرنسى فى شبه جزيرة سيدى فرج يوم ١٦ يونيو سنة ١٨٣٠ . . وصمد الجيش الجزائرى فى المعركة ، وهرع الشعب برجاله ونسائه للمشاركة فى القتال . .

توالت المعارك خلال ثلاثة أسابيع كاملة ، تكبد فيها الغزاة خسائر جسيمة ، ولم يتمكنوا من السيطرة على مدينة الجزائر ، إلا فى اليوم الخامس من شهر يوليو .

وصلوا إلى مداخل « القصبة » مركز الدفاع الرئيسى ، بيد أن حامية الحصن الكبير المشرف على المدينة ظلت تقاتل فى شجاعة فائقة ، وبسالة نادرة من وراء الأسوار العالية والأبراج المنيعة .

لم يكن عدد المدافعين عن الحصن يزيد على ألفين من المقاتلين ، بينهم أيضا نساء يقمن بخدمتهم ، ويوارين قتلاهم فى تراب الدهاليز .

وحاصر الحصن عشرة آلاف جندى فرنسى !

فى ذلك الوقت العصيب ، طاف قائد الحامية « الحزنجى » – أى

وزير المالية الجزائرية - على جنوده فى مواقعهم ، فأقسموا أن يدافعوا عن الحصن إلى آخر رمق فى حياتهم .

وامتد الحصار أسبوعا كاملا . .

أسبوع مجيد . .

شهد أروع آيات البطولة ، والتضحية والفداء . .

تساقط الشهداء واحداً بعد واحد . . حتى إذا ما أقبلت نهاية الاسبوع ، لم يكن قد بقى من الحامية غير بضع عشرات من الرجال ، أنهكهم التعب وهدهم الجوع . ومن حولهم أطلال وخرائب . .

وأصدر القائد أمره إلى البقية من رفاق السلاح ، بأن يحملوا الجرحى وينسحبوا من الحصن سالكين الطرق التى يجهلها العدو .

فى ركن من أركان الحصن ، وقف « بو عمران » وزوجه « نفيسة » يتحدثان ، وسط هزيم المدافع الذى لا ينقطع .

كان للرجل والمرأة ثلاثة أبناء فى عمر الزهور . وقد اشتركت الأسرة كلها فى الدفاع عن الحصن ، فاستشهد واحد من الأبناء الثلاثة فى أثناء الحصار ، وخرج الاثنان الآخران مع من خرج من الجنود الذين نجوا من الموت .

وبو عمران وزوجه نفيسه يعرفان ، ما سوف يفعله الاثنان ،

فلا شك فى أنهما سيثأران للدم المراق ، ويستأنفان الجهاد فى ميادين أخرى ، مع من يواصلون النضال المسلح فى كل ركن من أركان الوطن .

وقال بو عمران :

ـــ إن فى استطاعتنا أن نثأر لولدنا الشهيد ، الآن ، وبدون أن نغادر الحصن ، وقد نموت فى سبيل الثأر ، ولكن بعد أن نرضى الله والوطن والشهيد الكريم .

قالت نفيسه :

ـــ الرأى ما قلت ، فاذا ترى أن نفعل ؟

ـــ لقد وارينا شهيدنا التراب ، وودعنا أخويه على أمل اللقاء ، ولكننا لن نلتقى .

ـــ ماذا تعنى ؟

قال بو عمران فى ثقة واطمئنان :

ـــ سوف ننتظر دخول الأعداء إلى الحصن ، وانتشارهم فى أرجائه بعد أن يكون رفاقنا قد ابتعدوا فى أمان ، ثم ...

ـــ ثم ماذا .. سيقتلنا الفرنسيون .

ـــ لا .. بل سنقتل منهم عشرات ومئات قبل أن يتمكنوا من

تثبت أقدامهم فى الحصن ، وقبل أن يصلوا إلى مستودع البارود .. ينبغى ألا يستولى الفرنسيون يا نفيسة إلا على أكوام من الخرائب .

— فهمت يا بو عمران .

— إذن .. فأنت موافقة على ما انتويت الإقدام عليه .

— نعم ، وبكل تأكيد .

— هيا بنا .. والله معنا ..

وأخذ بو عمران بيد نفيسة ، واختفى معها فى فجوة بجوار الركن الذى كانا واقفين فيه . ودخل جنود فرنسا يتدفقون إلى صحن القلعة، وقد هزتهم نشوة النصر .. وفجأة .. دوى انفجار مروع زلزل الأرض تحت أقدامهم ، وهز ما تبق قائماً من الجدران الضخمة . فتطاير التراب فى الجو ، وحلت صيحات الذعر والفزع محل أهازيج النصر .. وهوت الأسوار بأبراجها ، وتحول الحصن الكبير ، إلى قبر كبير ..

أشعلت نفيسة وزوجها بو عمران النار فى البارود ، فكان الانفجار الذى حول الحصن إلى جحيم .

وهلك من هلك من الغزاة .. ودخل رفاقهم فى أثرهم ليحتلوا الخرائب ، واستشهدت نفيسة وزوجها ، لتورق شجرة الحرية فى الجزائر ..

مسلم عظيم

حمل عبد القادر الجزائرى راية الكفاح ضد الاستعمار فى خبرة تامة ، وثقة عالية بالنفس ، وواصل الكفاح طوال ١٧ عاما بمقدرة حربية نادرة تتجلى فى هذه القطعة الممتازة التى تفجرت بها قريحته مفتخراً بمواقفه البطولية :

ونحن سقينا البيض فى كل معرك
دماء العدا والسمر أسعرت الجوى
ألم تر فى خـــلق النطاح نطاحنا
غداة التقينا كم شجاع لهم هوى
وكم هامة ذاك النهار قددتها
بحد حسامى والقنا طعنـــة شوى
وأسيافنا قد جردت من جفونها
وردت إليها بعد ورد قد روى
ولما بدا قرنى بيمناه حربة
وكفى بها نار بها الكبش يشتوى
فأيقن أنى قابض الروح فانكفى
يولى قفاه حسامى مسد هوى

نزلت ببرج العين نزلة ضيغم
فزادوا بها حزناً وعمهم الجوى
وما زلت أرميهم بكل مهنـــد
وكل جواد همه الكر لا الشوى
وإنا بنو الحرب العوان بها لنا
سروراً إذا قامت وشانئها عوى

فما كان من الفرنسيين إلا أن شنوا حرباً ضروساً شاملة لتحطيم المقاومة الشعبية التى يقودها عبد القادر الجزائرى ، فراحوا يقتلون المدنيين ويحرقون المدن والقرى ، ولكن ذلك كله لم يفت فى عضد الشعب الجزائرى البطل ، حيث ظل يكافح صامداً كالجبل الأشم دون أن يهن أو يضعف ، أو تخامره فكرة الاستسلام .

° ° °

ولد عبد القادر الجزائرى فى شهر مايو سنة ١٨٠٨ بقرية « القيطنة » التابعة لإيالة وهران فى الإقليم الغربى من الجزائر . وكان والده الشيخ محي الدين الحسينى من أكابر العلماء ، محترماً لدى الشعب الجزائرى ، لكرم خلقه وورعه . وقد نشأه أبوه نشأة حسنة ، فلما ترعرع كان شاباً عظيم المواهب بارعا فى العلوم والآداب الإسلامية.

ثم إن أباه اصطحبه معه في رحلة إلى المشرق العربي حيث أدى معه فريضة الحج ، وسافر إلى الشام والعراق وزار ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية الصوفية التي تنتمي إليها أسرته ، ثم عاد الأب والإبن إلى وطنهما من تلك الرحلة التي استغرقت عامين من سنة ١٨٢٧ إلى سنة ١٨٢٩ .

وفي سنة ١٨٣٠ احتلت فرنسا الجزائر ، وما كادت المقاومة الرسمية تنتهي حتى بدأت المقاومة الشعبية . وما كاد ينتهي أمر « الداي » ويساق إلى المنفى ، حتى هب شعب الجزائر يكافح المستعمر . وقد اتخذت المقاومة الأولى صورتين :

١ — صورة المقاومة الرسمية الحكومية .

٢ — صورة المقاومة الشعبية .

أما المقاومة الحكومية فقد تولى قيادتها الحاج أحمد ، حاكم قسنطينة ، الذي بايعته الناحية الشرقية « باشا » ، وكانت له مع القوات الفرنسية وقائع وطنية مشرفة ، ولكن جاء احتلال مدينة قسنطينة سنة ١٨٣٨ ، منذراً بنهاية حركة المقاومة المنظمة .

وبدأت المقاومة الشعبية ، التي ضرب فيها أهل الناحيتين الوسطى والغربية من الجزائر أروع الأمثال في الكفاح من أجل الحرية والحياة الكريمة .

ففي سنة ١٨٣٢ جمع الأهالي ورؤساء العرب أمرهم في مؤتمر عقدوه بمسجد مدينة « معسكر » وبايعوا بالإمارة « الشيخ محي الدين » وقد قام فعلا بمحاربة القوات الفرنسية ، وضبط أحوال الإقليم ، ثم اعتذر الشيخ محي الدين بكبر سنه وضعفه عن تحمل أعباء الجهاد ، فطلبوا إليه أن يولي الأمر ابنه عبدالقادر لما ظهر من كفايته وشجاعته في الحرب ، فكان ما طلبوا وبويع عبد القادر أميراً .

واستمرت المقاومة الشعبية تكلف فرنسا الكثير من الرجال والأموال ..

يقول عبد القادر في وصف جنده :

الصادقون الصابرون لدى الوغى
الحاملون لكل ما لم يحمل
إن غيرهم نال اللـــذائذ مسرفا
هم يبتغون قراع كتب الجحفل
وألذ شيء عندهم لحم العـــدا
ودماؤهم كزلال عـــذب المنهل
كم أولجوا ، كم أزعجوا ، كم أسرجوا
بتســـارع للموت لا يتمهل

كم شردوا ، كم بددوا ، وتعددوا
تثبت كل كتيبة بالصيقل
ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة
والنقص عندهم بموت الحمل

وحد عبد القادر الجزائري القبائل لكي تقف سداً منيعاً في وجه القوات الفرنسية وتضطرها إلى الرحيل عن الجزائر . وقد خاض عبد القادر عدة معارك انتصر فيها على الفرنسيين ، وكانت معركة « وهران » أحد المعارك الفاصلة ، إذ لم تجد فرنسا مناصا من عقد إتفاق مع عبد القادر ويقتضاه وقف القتال في ٢٦ فبراير سنة ١٨٣٤ ، واكتفت فرنسا باحتلال الساحل . وقد عرف هذا الإتفاق باتفاق « ميشيل » .

ولما هدأت الأحوال تفرغ عبد القادر لإصلاح الشئون الداخلية في بلاده ، وواصل في الوقت نفسه إعداد العدة لمواجهة الحرب ، لإعتقاده أنها آتية ، فأنشأ مصانع الأسلحة وصب المدافع وإنتاج البارود ، ونظم الجيش . وكان هذا يحتاج إلى نفقات كبيرة ، فطالب القبائل بأداء الزكاة عن ما شيتها ، وامتنع بعضها ، بيد أنه تمكن بحسن درايته من إخضاعها ولم شتاتها ، فاتسعت سلطته وامتد نفوذه .

وشق ذلك على الجنرال « دى أورلين » القائد العام للقوات الفرنسية — فطلب إلى عبد القادر أن يلزم حدوده ، ولا يمد سلطته إلى خارج مدينة وهران ، وأجاب عبد القادر بأن دائرة سلطته غير محدودة بمقتضى المعاهدة بين الفريقين ، وطالت المفاوضات فى هذا الشأن ، وأدرك سوء نيتهم .. ودارت معركة رهيبة ، بين القوات الفرنسية ، والقوات الوطنية ، إنتصر فيها رجال عبد القادر إنتصاراً رائعاً .

وكان لهذه الهزيمة النكراء صدى بعيد فى فرنسا ، وقام الخطباء هناك يلومون حكومتها ويحضونها على الإنتقام من ذلك الأمير المسلم ، وكان هو على علم بما يجرى فى باريس من إطلاعه على ما ينشر فى الصحف الفرنسية ، فضاعف استعداده ، ونظم صفوف جيشه ، ولكن فرنسا كانت له بالمرصاد ، فخرجت على شروط الإتفاق ، فأرسل عبد القادر خطابا شديد اللهجة إلى تريزل القائد الفرنسى ، فكان رده أن وجه جيشاً كثيفاً كان هو على رأسه لمهاجمة عبدالقادر والتقى الجيشان فى غابة « سينج » ثم كانت معركة القطع فى يونيو سنة ١٨٣٥ التى فقد فيها القائد الفرنسى نصف جيشه ، وتدخل فى المعركة المارشال كلوزيل والدوق دورليان بجيش قوامة ١١,٠٠٠ رجل وقاتلوا عبد القادر الذى إضطر إلى التراجع وانسحب من

« معسكره » إلى مديه ، ولكنه لم ييأس ، واستمر يستمد ويناوش عاما كاملا ، ثم دارت معركة التافنــا وفيها انتصر الجزائريون إنتصاراً ساحقا ، وفي نفس الوقت هزمت القوات الفرنسية في قسنطينة ، وأخيرا لم تجد فرنسا مندوحة عن عقد صلح ، وتم معاهدة التافنا في مايو سنة ١٨٠٧ . وفيها تتنازل فرنسا عن مقاطعة وهران ومدن أخرى وتكتفي بالساحل وسهل المتيجة .

وقد بنى عبد القادر أول دولة جزائرية في العصر الحديث ، إذ وجه عنايته إلى اصلاح الشئون الداخلية للبلاد ، كما بذل مجهودات كبيرة لنشر التعليم بالاكثار من المدارس . وضرب نقوداً فضية ونحاسية نقش على أحد وجهيها « هذه مشيئة الله وعليه توكلت » وعلى الوجه الآخر « ضرب في تقدمة ، السلطان عبد القادر » .

ومضى عبد القادر يعمل جاهداً لتوطيد دولته ، ولكن فرنسا كانت تدبر له المؤامرات ؛ إذ خشيت من إزدياد قوته باطراد ، نخرقت معاهدة « التافنا » وأعلن عبد القادر الحرب عليها فبعثت الجنرال بوجو قائداً عاما في سنة ١٨٤١ ، وهزمت القوات الفرنسية هزيمة ساحقة . .

وكان لهذه الهزيمة وقع هائل في فرنسا .. فقرر ساستها إبادة شعب الجزائر !!

يقول الماريشال « دوسانت أرنو » فى رسائل جندى :

(إن بلاد الجزائر ، جميلة للغاية وهى أغنى قطعة أرضية عرفتها فى القارة الأفريقية ، الناس فيها يسكنون قرى متجاورة ، ولقد أحرقنا كل شىء فيها ، وهدمنا كل ما يعترض سبيلنا ، ما أسوأ الحرب ! كم من نساء وأطفال فروا منا والتجأوا إلى جبال الأطلس المغطاة بالثلوج ، وهناك ماتوا جميعاً من جراء البرد والعرى والبؤس) .

أما حادث حريق الكهف الذى آوت إليه قبيلة بأسرها فى سنة ١٨٤٥ هاربة من القوات الفرنسية ، فقد أصبح مثالا صارخا على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . .

فإنه ما كاد الجند يكتشفون هذا الكهف الفسيح ، حتى وضعوا أمامه وعلى مداخله أكواماً من الحطب والقش ، ثم أوقدوا فيها النيران . فلما جاء الصباح ، ودخل الجند الكهف ، وجدوا جثث ٧٨٠ من الضحايا الأبرياء بين رجال ونساء وأطفال ، مفككة الأوصال ، ممزقة الأشلاء .

وكانت حجة الإستعمار فى هذه الحرب الوحشية هى « أن الجزائريين شعب يرفض الاستسلام ولكى نقهره يجب علينا أن نحطم اقتصاده ، ويجب علينا أن نقضى على زراعته وعلى قواه) .

ولم تكن لدى عبد القادر الجزائرى نية الاستسلام ، لحارب فى شجاعة ، وقاتل فى فدائية منقطعة النظير الجيش الفرنسى الذى كان أقوى الجيوش البرية فى ذلك الوقت .

وفى سنة ١٨٤٣ إحتل الدوق دى موفول قلعة عبد القادر ، فالتجأ البطل الجزائرى إلى مراكش وتعقبته القوات الفرنسية عبر الحدود المراكشية ونشبت الحرب بين فرنسا ومراكش ، ولكن بوجو القائد الفرنسى استطاع أن ينتصر على جيوش مراكش وعبد القادر فى موقعة أزلى ، وضرب الأسطول الفرنسى طنجة ، وإذ ذاك استسلم سلطان مراكش ، وأبرمت معاهدة طنجة سنة ١٨٤٤ .

وفى سبتمبر من نفس العام ، انهزمت القوات الفرنسية فى معركة (سيدى ابراهيم) واستطاع عبد القادر أن يستعيد نفوذه ويقوى مركزه ، لحشدت فرنسا جيشاً ضخماً لمحاربته بقيادة « بوجو » الذى تمكن من نسف حصن « الأورزو » فى سنة ١٨٤٧ ، واضطر عبد القادر للإلتجاء إلى مراكش مرة أخرى ولكن السلطان فى هذه المرة عمد إلى رفضه ، فسلم عبد القادر نفسه إلى الجنرال الفرنسى لاموريسير فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٤٧ ، وهو يردد هذه الأبيات التى تفجرت بها شاعريته فى هذه اللحظة الرهيبة .

قلدت يوم البين جيد مودعي
درراً نظمت عقودها من أدمعي
وحدا بها حادى المطايا فلم أجد
قلبي ولا وجداني ولا صبرى معي
ودعتهم ثم انثنيت بحسرة
تركت معالم عهدى كالبلقع
ورجعت أدارى الطريق ولا تسل
رجعت عداك المبغوض لمرجعي
يا صاح وانصت لأخبار الهوى
حاشا بمثلك أن أقول ولا يعي
إني أحدث بالهوى بغرائب
وعجائب حتى كأني الأصمعي
يا نفس قد فارقت يوم فراقهم
طيب الحياة ففي البقا لا تطمعي

كان من شروط عبد القادر عندما سلم نفسه للقائد الفرنسى ، أن ينقل هو وأسرته ، ومن يختار الرحيل معه إلى الاسكندرية أو إلى عكا.

ولكن الحكومة الفرنسية لم تنفذ ما اشترطه الأمير عبد القادر ، فقد كانت لا تزال تخشى نفوذه ، فاعتقلته فى قصر طولون مدة . . واستطاع عبد القادر الجزائرى أن يسيطر بشخصيته القوية على الضباط الفرنسيين وينتزع إعجابهم فى أيام المحنة ، فقد كان هناك قوى الارادة لم تزده الغربة والأسر والنفى إلا قوة وعظمة .

يقول الجنرال « دوما » فى رسالة بعث بها إلى أحد رجال الدولة يدعوه فيها إلى زيارة الأمير وهو أسير :

« إنك ستزور الأمير المشهور فى قصر مدينة « بو » ولكنك ياسيدى لن تأسف على مشقة السفر ، إنك عرفت عبد القادر فى حالة الزعامة عندما كانت البلاد الجزائرية تعيش تحت قانونه وسلطته ، ولكنك اليوم ستجده أعظم مما عرفته إذ ذاك ، إنه اليوم سيملك عليك نفسك كما كان دائما ، لأنه اليوم أيضا يسيطر على مصيره كما كان دائماً ، ستجده هادئا ، متواضعا بسيطا كما كان دائما ، لا يطلب شيئا من أحد ولا يحتاج إلى شيء ولا يشكو من شيء ، إنه ودود سخى ، لا يفكر فى آلامه ، لأنه مشغول بآلام غيره » .

ثم زج به وبحاشيته إلى السجن فى بلدة (ابيس) ومكثوا فيه حتى

أكتوبر سنة ١٨٥٢ حين زار الامبراطور نابليون الأمير عبد القادر واعتذر إليه وسلمه صحيفة فيها الاذن بإطلاق سراحه وسفره إلى تركيا على ألا يتدخل الأمير فى شئون الجزائر . وسافر الأمير وحاشيته إلى تركيا فقبله السلطان بقبول حسن ومكث فى بروسه سنتين ثم انتقل منها إلى دمشق حيث أخذ يعيش حياة هادئة مقسما وقته بين المطالعة والتأليف ومجالسة العلماء حتى توفى فى سنة ١٨٨٨ بعد أن ألف بعض الكتب فى التوحيد والتصوف .

أبو معزى

من أبطال المقاومة الجزائرية المناضل محمد بن عبد الله المعروف بأبو معزى ويرجع أصله إلى قبائل الشلف ، وقد قام بشن حرب نفسية ضد الفرنسيين فى مناطق وهران الجنوبية ، ثم انتقل إلى زوادة يدعو أهلها إلى الجهاد المقدس ضد الاستعمار الفرنسى ، واستطاع أن يجمع حوله جماهير غفيرة . وبما أنه كان مستقلا فى حركته عن عبد القادر الجزائرى فقد ظن الفرنسيون بادىء الأمر أنه يمكنهم الاعتماد عليه فى إضعاف سلطة عبد القادر ، ثم عادوا يرهبون منه بعد أن نازلهم سنتين ألحق بهم خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد . .

وانضم أبو معزى إلى عبد القادر فالهدف واحد ، والمصير واحد . . وقاتلا معا قوات فرنسا ، إلى أن اضطر عبد القادر فى سنة ١٨٤٥ إلى الالتجاء إلى مراكش فعاد أبو معزى إلى الجزائر واستمر فى نضاله المسلح . . ولما عاد عبد القادر فى نفس السنة انضم إليه مرة أخرى أبو معزى والتف من حولهما كافة قبائل وهران والجزائر . . وانتصروا انتصاراً رائعا على الفرنسيين فى معركة (سيدى ابراهيم) بقرب جامع الغزوات الأمر الذى اضطر من أجله (بوجو) القائد الفرنسى أن

يطلب إمداده بجيش لجب كي يستطيع مواجهة الزحف العربي لتحرير الأرض العربية ، واستمر القتال محتدما ، ضرب فيه الشعب الجزائري أروع الأمثلة في البطولة والتضحية والفداء ... ولكن ... القوات الوطنية لم تتمكن من مقاومة جحافل فرنسا ، فاضطر أبو معزى للاستسلام ، واعتقل في حصن « هام » بشمال فرنسا في نفس الغرفة التي كان نابليون الثالث معتقلا فيها قبل توليه الحكم ، وبعد أن أفرج عنه انتقل لتركيا وعاش فيها معززا مكرما .

وفي حرب القرم انضم للجيش العثماني وقاتل في صفوفه وسقط في القوقاز في أسر الروس ، ثم توفي في مدينة باطوم .

وقد ادعى من بعده ستة أفراد جزائريين أنهم هم أبو معزى وبعضهم ادعى أنه أخوه وتسمى باسم مولاي أحمد أبو معزى ، وقد جرح هذا الأخير في إحدى المعارك وأسر ، ثم أحيل إلى المحكمة العسكرية .. فكان موقفه مثيرا للإعجاب والتقدير ..

وقد جرى بينه وبين رئيس المحكمة الحوار التالي :

رئيس المحكمة : من أنت ؟

فأجاب في ثقة .. وهدوء :

ـ أنا أبو معزى .

— لماذا قاتلت فرنسا ؟

— لكونها دولة باغية طاغية معتدية علينا .

— ألم تر أن العرب انضموا إلينا ؟

— هؤلاء العرب قسمان : الأكثرية منهم أبرياء يخافون على حياتهم ، والأقلية خونة لا يبحثون إلا عن رضاء الحاكم مهما كان ، وعن توشيح صدورهم بشريط أحمر !

— ماذا تنتظر منا ؟

— لا يهمني ما أنتظره منكم .

— وإذا أطلقنا سراحك ماذا تفعل ؟

— أعود للجهاد في سبيل الله .

— وإذا قتلناك ؟

— سأتقدم لله ناطقاً بالشهادتين .

— وإذا سجناك ؟

— سأقضي أوقاتي عابداً طالباً من الله أن ينصر العدل على الظلم .

— لماذا تكرهنا ؟

— لأنكم ظلام طغاة ..

وحكم عليه بالسجن .. ودفع ضريبة الدفاع عن أرضه ، وعن حريته وكرامته .. وسجل اسمه في سجل التاريخ بحروف من نور ..

أولاد سيدى الشيخ

قصص البطولة والفداء تتردد على شفاه الشعب الجزائرى . . فهو صانعها ، وليست هناك ثورة كالحت وجالدت واستمرت فى كفاحها وفى حمل السلاح قوياً نابضاً بالحرية ، كما كالحت وجالدت ثورة الجزائر . .

ولقد شربت أرض الجزائر من الدماء حتى ارتوت ، وأكلت من الرجال حتى شبعت ، وسلكت طريق الدم بحثاً عن الفجر الصادق . .

أولاد سيدى الشيخ أسرة دينية تتمتع بالسلطة والنفوذ فى عمالة وهران وكان لها زاوية مشهورة يشرف عليها رجل يدعى سى حمزة أحد أعيان الأسرة ، وكان هذا الرجل يطمع فى أن يكون خليفة فى جنوب وهران ، وأحس الفرنسيون بهذه الرغبة وأدركوا أن تحقيق أطماع الرجل يجعله ألعوبة فى أيديهم يحركونه كما يريدون لتحقيق رغباتهم الاستعمارية ، وقد حز هذا السلوك فى قلوب الأهالى وخاصة أولاد سيدى الشيخ .

وذات يوم من أيام سنة ١٨٦٤ دبرت زوجة سى أحمد باتفاق مع ابنها سليمان خطة لتطهير الأسرة من هذا العنصر الدنس ، فالوطن أعز عليها وأغلى عندها من زوجها ، فدست له السم فى الطعام وانتهت حياة سى حمزة التى كانت وصمة عار فى جبين هذه الأسرة الكريمة .

وتولى قيادة القبائل والعشائر ابنه سليمان ، ونادى بالثورة ضد المستعمر الغاصب ، فتراكض أبناء الشعب يلبون النداء المقدس .

وجاءت من فرنسا جحافل الطغيان بقيادة الجنرال « بوبويتر » ، ولكنها لم تصل إلى ميدان المعركة فقد أبيدت عن آخرها فى كمين محكم نصبه لها الثوار فى مكان يدعى « عين بو بكر » على بعد ٥٠ كم من البيض .

وعندما كان الجنرال « بوبويتر » يتخبط فى دمائه ويلفظ أنفاسه الأخيرة ، أسرع إليه قائد الثورة سى سليمان بيد أنه لم يكد يقترب منه حتى أطلق عليه الرصاص فاستشهد ، وخلفه عمه لاله ، وتواصلت الحركة الثورية بعد ذلك خمس سنوات .

وفى سنة ١٨٦٥ توالت نجدات عسكرية ضخمة من فرنسا . وفى سنة ١٨٦٨ زحف لاله على جبل عمور واخترقه إلى جنوب عمالة الجزائر . وعندئذ لحقت نجدة جديدة تتألف من ٣٠٠٠ جندى يقودها ثلاثة جنرالات . والتقى الجيشان بالقرب من « وادى ايغ » . وكانت الظروف فى هذه السنة غير مواتية للثوار ، فقد عمت المجاعة وأودت بحياة ٣٠٠,٠٠٠ جزائرى ، وبذلك هدأت الثورة وسكنت عواصفها ... ولكن إلى حين .. !

فقد تولى الشيخ بو عمامة قيادة الثورة من جديد ، لمواصلة النضال ضد العدو لتحقيق النصر ، وتحرير الأرض . والتف الثوار من حوله، وكلهم عزم وتصميم وإرادة صلبة لا تلين . . فإن شعارهم النصر أو الاستشهاد في معركة المصير .

هاجم الشيخ بو عمامة كامل الجنوب الوهراني حتى معسكر ولكنه أضطر إلى الانسحاب نحو الجنوب ، وواصل مقاومته الباسلة لكل توغل فرنسي حتى سنة ١٩٠٠ ، حيث أرغم على اللجوء الى « فقيق » بالمغرب الأقصى وبقي حتى توفي هناك سنة ١٩٠٤ .

عـــذراء الجزائر

حى القصبة العربى فى مدينة الجزائر ..

وهناك ... فى سجن « باربروس » الرهيب ... وقعت أحداث هذه القصة الدامية التى أثارت الرأى العام الفرنسى والعالمى ...

جميلة فتاة حلوة فى عمر الزهور المتفتح للربيع ، المتطلع إلى حياة مشرقة ... ولكنها تلق العذاب الغليظ ... وتتجرع كأس الألم حتى الثمالة ، لكى تشارك مع رفاق السلاح فى صنع مستقبل أفضل للإنسان الجزائرى ...

ما قصتك يا جمـــيلة ؟

إن قصة جميلة بو حريد هى قصة من آلاف القصص التى جرت فى قلب معركة الجزائر من أجل الحرية والاستقلال ..

فى فجر ٩ إبريل سنة ١٩٥٧ كان ثلاثة أشخاص يسرعون الخطا فى أزقة حى القصبة العربى الخالية من الناس وقد استولى عليهم الخوف، وفجأة برزت دورية من جنود « الزواف » الفرنسيين فى شارع « أبو الهول » فكان انذار ، واطلاق نار .. وهرب إثنان ، أما الشخص الثالث فقد أصيب ووقع على الأرض وهو يصيح من الألم .

كان هذا الشخص هو جميلة بوحيرد فقد أصابتها رصاصة مزقت كتفها ، وحملت إلى مستشفى « مايو » .. وفى صباح اليوم التالى كان هناك ثلاثة مفتشين يقفون أمام سريرها للتحقيق ..

الضحية إذن مهمة ، والمحققون أحرار فى أن يظنوا أن الشخصين الفارين اللذين كانا برفقة جميلة هما ، يوسف السعدى ، رئيس المنظمة الفدائية فى الجزائر و « على النقطة » مساعده ، وعلى الرغم من صغر سن جميلة ، فقد كانت تتمتع بكامل ثقتهما .

وهى ثائرة متحمسة ، وكان عمها ، قد ضمها إلى المنظمات السرية ، وهى متعلمة ذات ثقافة عربية واسعة ، وتحمل شهادة عليا من المدرسة القرآنية بالجزائر .

وبعد مرور وقت أصبحت جميلة السكرتيرة الخاصة ليوسف السعدى وضابطة إرتباط تابعة له ، وزعم الفرنسيون أنهم عثروا على وثائق هامة معها ، إذن يجب أن تعترف بكل شىء ، ويجب أن تتكلم .

ولكن كيف .. ؟

وبدأت جلسات الاستجواب تتوالى الواحدة بعد الأخرى فى المستشفى ، وعلى الرغم من اللطمات وشد ذراعها المكسور سكتت جميلة عن قول الشىء المهم .

وفى ليلة ١٧ إبريل سنة ١٩٥٧ حملتها سيارة إلى مسافة بعيدة عن المدينة ، وفى سجلات النائب العام شكاوى عديدة أفادت بها جميلة ، منها هذه الإفادة .

« لقد خلع المظليون الفرنسيون ثيابهم وأصبحوا عراة ثم عصبوا لها عينيها وربطوها فوق مقعد بعد أن بللوا جميع الأربطة بالماء حول معصميها وحول كاحلى قدميها ، ثم وضعوا أشرطة كهربائية فى كل مكان من جسمها ، حتى فى مكمن عفافها وفى فمها وفوق نهديها وأخذوا يطلقون التيار الكهربائى عليها وهى بهذا الشكل » .

وبعد مضى أكثر من أسبوع على تعذيبها بهذه الصورة الرهيبة ، مثلت جميلة بو حريد فى ٢٧ ابريل سنة ١٩٥٧ أمام قاضى التحقيق ، وزعم رجال الشرطة زورا أن جميلة اعترفت تحت التعذيب ، بأنها هى التى وضعت قنبلة فى إحدى مقاهى مدينة الجزائر وأدى إنفجارها إلى سقوط عدد من الضحايا .. وقد أنكرت جميلة هذه التهمة وقالت إنها لم تتحدث مطلقاً عن هذا الحادث ، وأصرت على تأكيد دورها كضابط إرتباط ، وأنها تقوم بنشاط وطنى فى سبيل تحرير بلادها .

ماذا بقى إذن من ملفها ؟

ليس هناك شىء يثبت الاتهام ، إلى أن جاء يوم اعترفت فيه مناضلة

جزائرية عربية أخرى تدعى جميلة بو عزة تحت التعذيب والتنكيل ، بأن جميلة بو حريد سلمتها القنبلة التى وضعت فى مقهى آخر بالجزائر.

وقد أثارت هذه القنابل فى حينها سخط الشعب فى مدينة الجزائر، وازاء ذلك كان على السلطات أن تكتشف متهمين بأى ثمن !!

وقررت السلطات الفرنسية أن تنتقم ، فقدمت جميلة للمحاكمة ..

وفى ١١ يوليو ... عقدت المحكمة أولى جلساتها بمدينة الجزائر ، وبدا مسلك جميلة بوعزة بأنها فقدت عقلها تماما ، إذكانت تتجرد من ثيابها أمام المحكمة وتطلق ضحكات هيسترية ، وصيحات جنونية ، وحين كان رئيس المحكمة يستجوبها كانت تجيب «كوت .. كوت .. اس أو اس أو اس» ، ثم تقع فى نوبات عصبية شديدة ، لقد جنت الفتاة . ورفض القضاة فحص جميلة بو عزة لدى إخصائى للأمراض العقلية ، ذلك بأنها هى الشاهد الوحيد الذى يملكونه .. ورفضوا أيضاً أن يستمعوا إلى ما ذكر من تعذيبها ، وكان أن رفضوا أخيراً جميع الاعتراضات ، واضطر محامو الدفاع إلى الانسحاب .

وفى ٢٥ يوليو صدر الحكم على جميلة بو حريد بالإعدام .

وقد اهتز الرأى العام العالمى سخطا على هذا الحكم ، فأرغمت فرنسا على استبداله بالأشغال الشاقة المؤبدة . .

وكتب الشاعر عبد السلام الحبيب الجزائرى « أغنية إلى جميلة بوحريد .. » قال :

رفى ... بأجنحة الشموخ ... على مسارى الأنجم
فالذروة الشماء ... لا تعنو لغير القشعم
وخطى الفدائيين ... عبر لظى السير على الدم
فتقدمى ...
لمصيرك المحتوم ... يا أخت الرجال وددمدمى
يهتافك الهدار ... يزأر بالفضاء أعداء أمتنا أصحاب حر الأوسمة .
من أرجفوا زوراً بأنك مجرمة .
قولى لهم ... للظامئين إلى الدماء
قولى لجلاديك ... من دمى الفداء
أنا لست آبه السجون وبالسلاسل
من يفتدى الأوطان .. لا يخشى المقاصل
قولى لهم : غدنا قريب
غدنا الحبيب
سيطيح بالعادى الغريب
إعصاره الطاغى الرهيب

سيرى كما سار المسيح على طريق الجلجة .
سيرى بأصفاد الغزاة مكبلة
بالشوك ... بالدم ... بالقتام مكللة .
كالأنبياء ...
عيناك يومض منهما نور الفداء
وجبينك الوضاء ... ينضح بالإباء
نصبوا لأجلك مقصلة ...
وعلى الطريق ...
تزاحموا ... ليروا فتاة « القنبلة »
فى زفة الأمجاد ... تخطو مقبلة
فى موكب التاريخ بالنور المقدس رافلة
ليروك شامخة الجبين ...
كالفاتحين ...
فى نشوة النصر المبين ...
تبتسمين ...
للشامتين الحاقدين ...
لتفاية المستعمرين ...

لم تحفل بهرير أوباش الجنود
بفحيح رباث المواخر .. غيد ، لاكوست ، الكنود ..
فى كل فاجرة السريرة عاهرة
مسعورة الإحساس .. تقبع ساخرة
، للموت .. يا بنت العصاة الثائرة ، .

. . . .

سيرى ، عروس المجد حيتك الجزائر
ويومك المشهود .. أقسم كل ثائر
لن يغمدن حسامه ، أو يجلو المحتل صاغر
يا خولة الأوراس ، يا بنت المفاخر
سيظل ذكرك بيننا . يا أخت . عاطر
أبداً تهدهده السرائر ...
أهزوجة حمراء .. تهدد بالخناجر
وقصيدة عصماء .. فى فم كل شاعر
وصلاة أفئدة .. تلقنها الحرائر
لصغارها ...
فى ليلها ونهارها . .
سيظل رسمك .. يا جميلة .. فى إطار

بين الورود .. على جدار
فى كل دار
ذكرى حميدة ...
لتضال ثائرة شهيدة ...

. . . .

فى القصر ... فى الدوار .. فى ليل القبيلة
سيرددون غداً .. حكايات طويلة ..
عن حرة أنفت بأن تحيا ذليلة ..
فتأبطت رشاشها ... احتضنته بالأيدى النحيلة
لتخط من طلقاته سير البطولة .
فى سفر ثورتنا النبيلة
سيخلد التاريخ ذكراك الجليلة
فى كل قلب ... يا جميلة .

قصة . . . كفاح قرية جزائرية

يقع « مشتى أولاد يعلى » فى سفوح جبل « زواوة » بمنطقة القبائل الكبرى . وقد اعتادت وحدة مصفحة من جنود الاستعمار ، قوامها أربع سيارات مصفحة ومسلحة بالبنادق السريعة والرشاشات ، أن تزور « مشتى أولاد يعلى » يومياً للبحث عن أثر للمجاهدين . وقد صادف يوماً أن وجد هؤلاء جريحاً جزائرياً فأجهزوا عليـــه ، وأعدموا صاحب الكوخ الذى التجأ الجريح إليه .

وجاء الشتاء بثلوجه فأمرت القوة الغاشمة سكان المشتى بتنظيف الثلوج فى منعرجات الطرق الجبلية القريبة من مسكنهم يومياً قبل طلوع النهار .

وذات يوم كان الشيوخ والعجائز يقومون بهـذا العمل المضنى ، يقذفون الكتل الثلجية إلى أسفل الوادى فتهبط وتتمزق على الصخور .. وفيما كانوا يتأملون هذه الثلوج فى انحدارها أخذوا يتذكرون الجلادين الذين يجبرونهم على هذا العمل والذين قتلوا أبناءهم وأحفادهم وساموهم مختلف ألوان العذاب.. وتطلع بعضهم إلى البعض الآخر .. وخطرت فى أذهانهم فكرة . . وكانت ندوة ليليـة قرر فيها الشيوخ والعجائز

القيام بأمر حاسم فيه خلاص للجميع . وأقسموا بالله والوطن وبأرواح الشهداء أن ينفذوه مهما كان الثمن .

قامت العجوز ، أبى عزيزة ، إلى صخرة ، وأخرجت من تحتها بندقيتين للصيد مع ذخيرة ملفوفة بخرق مشبعة بالزيت لحفظها من الرطوبة ، كان يملكها زوجها الذى قضى عليه فى أوائل الثورة . ودفعت السلاح لشيخين هما أبرع البقية رماية وأقوام عصباً . وذهب الباقون من السكان إلى الكهوف يجمعون ما لديهم من الصابون الأسود المستخرج من نفايات الزيتون بعد عصره بالطريقة البدائية بجرن صخرى ، وتقاسموا حمله ونقلوه ليلا إلى جانب الطريق . وكانت كتيبة الله تردد ما تعرفه من ذكره لتطمئن قلوبها ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، وقد اختاروا مكاناً يشرف على الوادى الصخرى العميق فلم تمض ساعتان حتى أزيلت كل عثرة من جانب الطريق وطليت المنعرجات بطبقة كثيفة من الصابون الأسود المتجمد من أثر الصقيع . وتفرق بعد ذلك أفراد الكتيبة إلى مرابضهم فى سفح الوادى منتظرين ما يجيء القدر للطغاة إذا طلع النهار ، فإما أن يكتشف الوحش الضارى المصيدة ويفلت من حبائلها ، وينتقم من الأهالى شر انتقام . وإما أن يشفى الله صدور هؤلاء السكان ممن دأبوا على إهانتهم يومياً وأذاقوهم لباس الخوف والجوع والتشريد والتنكيل برجالهم ونسائهم وأطفالهم حتى فقدوا لذة الحياة .

اختبأ السكان فى قعر الوادى وفى سـفحه ، وبقى اثنان تسلحا بالبندقيتين ، وكنا فى حفرة على هضبة تشرف على الطريق ، منتظرين ظهور الوحوش ليسوقوهم نحو الشراك ويشغلوهم عن النظر بين أقدامهم،فيحولوا أنظارهم إلى ما حولهم من صخور وأعشاب ويتخيلوا أن وراء كل صخر وخلف كل عشب مجاهداً جزائرياً لا يطلق رصاصة سدى ولا يضيعها بالهواء ، بل يميثها حين يطلقها نحو الصدور والنحور والرءوس حيث تستقر أو تنفذ من جسم لتستقر فى جسم آخر اقتصاداً وتوفيراً فى الذخيرة ، ليضاعف عدد الصيد عن عدد الطلقات ، وهذه طريقة المجاهدين فى الجزائر فى القتـال . اشتهرت عنهم وعرفها من قاتلهم أو قاتل معهم ..

طلع صباح يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٥٦ ، وحالت السحب السوداء دون نفاذ أشعة الشمس ، وكان يوماً يبعث الرهبة فى النفوس ، يوماً عبوساً قمطريراً .

ولم يمض كثير من الوقت حتى بدأ أزيز السيارات بالاقتراب ، وأخذت النفوس المؤمنة تستعد للقاء العدو . خصوصاً الشيخ صالح والشيخ عمار حيث حبسا أنفاسهما كيلا تتسرب إلى مسامع الذئاب .

وقال أحدهم :

— هيا باسم الله .

فقال الآخر :

— وعلى بركات الله .

وأنطلقت طلقات ضعيفة وحمل صداها إلى مسامع الجند كأنها صواعق .. وصاح الجند :

— كمين .. كمين .

فقال القائد :

— لنتابع السير .

ومد الجنود أسلحتهم من وراء المتاريس الحديدية ، بينما السيارات تسرع سيرها نحو المنعرج فتلقاها جند الوطن الممد على الطريق ... وتعمى طبقة الصابون الأسود التي وضعت على الطريق فإذا هي كبساط الريح ، حمل السيارة الأولى بسرعة إلى الوادي السحيق قبل أن تظهر الثانية وما كادت هذه تشرف على المنعرج حتى رأت الكارثة التي حلت بالأولى وقبل أن تدرك أسبابها ، كان بساط الموت يتلقفها بسرعة ، ويقذفها وراء أختها . . . وهكذا الثالثة والرابعة . . انزلقوا بطريقة سحرية من الطريق وقذف بهم إلى الوادي بعد أن شلت تفكير السائقين كما عطلت الآلات والمماسك ..

وتلقت الصخور والنتوء الحجرية البارزة بجانب الوادي أجسام

الجنود وهياكل السيارات يعجن بعضهم البعض الآخر .

وهدأت العاصفة . . وقام أهالي « مشي أولاد يعلي » يتابعون عملهم ، فأجهزوا على ما يمكن للعدو أن يستفيد منه ، واستولوا على ما سلم من الأسلحة والذخيرة ، ثم إتجهو نحو الغابات حيث الشباب يتجمعون وينتظرون بوحدات تنقض على أعداء البـــلاد ، لتحيا الجزائر حرة .

الفصل الثالث

الفكر والثقافة

قاومت الجزائر مؤامرات التغريب التي وجهت إليها ، ما استعلن منها وما اختفى ، ووضع الشعب الجزائري نصب عينيه هدفين كبيرين دافع عنهما دفاعا مجيداً ، هما : اللغة العربية والاسلام ، ولكن فرنسا التي ظلت تحكم الجزائر من سنة ١٨٣٠ إلى اعلان الاستقلال في ٥ يوليو سنة ١٩٦٢ ، كانت تفرض طوال هذا الوقت أسلوبها في التعليم والتربية ولغتها الفرنسية ومذاهبها الفكرية في الصحافة والأدب . لقد إستطاعت فرنسا من وراء كل مقاومة جزائرية أن تترك طابع الفرنسة ، في الثقافة والفكر .

ففي حربها للغة العربية أتاحت الفرصة للغة الفرنسية أن تتسع ، حتى أن مجاهداً كالثعالبي لا يجد ابنه يكتب إليه وهو مغترب عن وطنه إلا باللغة الفرنسية . وحتى لا يجد كتاب الجزائر أمثال :

محمد ديب وكاتب ياسين . ومولود معمري وآسيا جبار ومالك حداد وغيرهم سبيلا للتعبير عن رأيهم إلا بالفرنسية . وكذلك فعل فيلسوف الجزائر مالك بن نبي في أغلب مؤلفاته ، قبل أن يكتب بالعربية .

يقول مالك حداد :

« أنا أرطن ولا أتكلم ، إن في لغتي لكنة ، إنني معقود اللسان »

أنا لا أغنى ، لا أغنى ، فلو كنت أعرف الغناء لقلت شعراً عربياً .
لقد شاء الاستعمار أن يكون فى لسانى آفة ، أن أكون معقود اللسان ».

وكانت صورة الحرب الرهيبة تبدو واضحة القسمات فى الجزائر، إذ كانت الحرب فى ميدان العقيدة والثقافة واللغة والجنسية . ووجهت ضد تاريخ الجزائر ، والحضارة الجزائرية والشعب الجزائرى أعنف ألوان الحروب وأقساها!. ويرسم عثمان الكعاك الصورة فى دقة ووضوح فيقول :

[كانت حربا فى العقيدة قام بها لا فيجرى والآباء البيض وغير البيض ، والسورات وغير السورات ، وحربا على الثقافة الإسلامية العربية التى قامت بها جامعة الجزائر وإدارة التعليم ، وصليبية هانانو ضد اللغة العربية لفائدة اللهجة البربرية ، وحرباً فى انتزاع الأرض وحرباً ضد المعالم الإسلامية . فقد حولت مئات الجوامع إلى كنائس ومصليات يهود ، وحرباً ضد أسماء المدن الجزائرية التى حولت إلى أسماء قواد وأدباء وعلماء من الفرنسيين ، مثل « باسكال » و « فولتير » و « مونتسكيو » و « هوجو » ، وحرباً ضد الجنسية الجزائرية بإبادة الشعب الجزائرى ، وحرباً ضد تاريخ الجزائر . فقد أدعت المدرسة الجزائرية أنه لا يوجد تاريخ جزائرى ، ولا حضارة جزائرية ، فضلا عن شعب وأمة جزائرية ، ولا يوجد تراب جزائرى ...] .

وقد كتب عبد الحميد بن باديس فى صحيفة « الشهاب » (أبريل سنة ١٩٣٦) مؤكداً أن الشخصية الجزائرية موجودة .

ومما قاله : إنهم يقولون : « حاولنا عبثاً البحث عن الشخصية الجزائرية فى التاريخ وفى الحاضر فلم نجدها ، فرنسا هى أنا . وأنا أقول : اننا بحثنا عن الشخصية الجزائرية فى الماضى والحاضر فوجدناها أمة اسلامية جزائرية . تكونت ووجدت كما تكونت ووجدت جميع أمم الأرض » .

ومن هنا بدأت مقاومة هذه الحرب الثقافية على نحو واسع وعميق عن طريق جماعة الميزابيين بالجنوب وجمعية العلماء التى تأسست سنة ١٩٣١ بالعاصمة كرد فعل إزاء تغلغل الاستعمار الفرنسى فى حياة الجزائر الثقافية والروحية .

وينتسب الميزابيون إلى واحات الميزاب الواقعة فى الجنوب على حافة الصحراء الكبرى ، ويشتهرون أيضاً باعتناق مذهب إسلامى هو المذهب الأباضى ، كما عرفوا منذ زمن طويل بالنشاط التجارى الهائل . وقد مكنتهم جميع هذه الصفات من أن يؤدوا دوراً فعالا فى إحياء الثقافة العربية يوم أن كاد يقضى عليها فى الجزائر فبحكم كونهم يمثلون طائفة محدودة اهتموا بتلقين المبادىء الدينية فى المساجد التى اتخذت

أيضاً دوراً للتعليم . وبحكم الثروة التى حصلوا عليها من التجارة استطاعوا أن ينشئوا المدارس الخاصة لا فى واحة الميزاب فحسب بل فى مدن الجزائر الأخرى . وحينما شبت الثورة الجزائرية وضعوا أنفسهم وأموالهم تحت تصرفها . وكانوا حلقة صلة طيبة بين الجزائر والعالم العربى والإسلامى . وبينما لاتزيد نسبة الذين يعرفون الكتابة بالعربية عن الخمسين فى المائة . إذا ما قيسوا بجميع المتعلمين فى الشمال نلاحظ أن ١٠٠٪ من الميزابيين المتعلمين يتقنون العربية ومعظمهم يجيدها أكثر مما يجيد الفرنسية أو لايعرف لغة سواها (١) .

أما جمعية العلماء فقد جعلت من مهماتها الأساسية إنشاء المدارس الحرة التى يتلقى فيها الشباب بعد الظهر دروساً فى اللغة العربية وفى التاريخ الوطنى . وقد ذهبت الجمعية إلى حد إرسال بعثات للدراسة فى مصر وغيرها من أقطار المشرق العربى . وبفضلها تم الحفاظ على اللغة العربية . وبرزت «الشخصية الجزائرية» فى كتابات عبدالحميد بن باديس والبشير الإبراهيمى والعقبى والميلى . وشعر سحنون ومحمد العيد .

«وفى الوقت الذى كانت الأحزاب السياسية . «كالشعب» و«البيان» تدعو الى الثقافة الفرنسية والحضارة الفرنسية ، والى نبذ

(١) الدكتور صلاح العقاد : مسألة التعريب فى الجزائر – الأهرام الاقتصادى (مارس ١٩٦٥) .

التعصب ، كانت جمعية العلماء تقف حائلا دون أن يجرف التيار الفكري الفرنسي والغربي الجزائر ويسلخها من عروبتها واسلاميتها ، فقد أحيا - ابن باديس - وجماعته الجانب العربي في الشخصية الجزائرية، وطهر الإسلام من الخرافات ، وأنشأ المدارس الحرة والمساجد الحرة. وكان معنى هدفه : أن امتناع الاستعمار عن تدريس اللغة العربية القومية في المدارس الرسمية لا يقف حائلا دون تعلمها [1] » .

واستطاعت الجزائر أن ترد على التحدي ، وأن تقاوم بكل صلابة محاولة القضاء على « الذاتية الجزائرية » بفرض الجنسية الفرنسية على المواطن الجزائري أو القضاء على اللغة العربية .

كانت دعوة ابن باديس أن « اللغة العربية - الإسلام - الجزائر » هي مقومات الشخصية الجزائرية ، وقامت دعوته على أساس التربية ، وكشف عن أن الفكر الجزائري فكر عقدي يؤمن بالقومية ، ولا يكاد يفصل بين مفهوم العروبة ومفهوم الاسلام .

وبدأ الفكر الجزائري : فكراً مثالياً يؤمن بالأخلاق والسلوك من ناحية ، وفكراً ثورياً نضالياً يؤمن بالمقاومة والكفاح من ناحية أخرى .

(١) عثمان السعدي : الآداب م ١٩٥٥ نقلا عن الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقية لأنور الجندي .

لقد كان أول هدف للاستعمار الفرنسي هو الإبقاء على نسبة عالية من الأميين بين صفوف أبناء الشعب الجزائرى ، فالأمية مرض خطير يعطل إمكانيات التقدم ، ويمنع الشعب من الحصول على نصيبه الحقيق من الحضارة .

وحسب إحصائية علمية صدرت سنة ١٩٥٨ تبين أن ٩٠ فى المائة من سكان الجزائر أميون وأن هناك حوالى مليونين من الأطفال فى سن التعليم لا يتردد منهم على المدارس سوى مائتى ألف طفل أى بنسبة العشر .

ويمكننا أن نقارن هذا الوضع فى الجزائر بما كانت عليه هذه البلاد فى الماضى ، فقد قال الكاتب الفرنسى « بولار » : إن الجزائر كانت تضم معاهد علمية عظيمة الشأن قبل دخول الاستعمار الفرنسى . وكانت هذه المعاهد تنتشر حول المساجد المختلفة فى أنحاء البلاد . إن الأغراض الرئيسية التى كان يستهدفها الاستعمار الفرنسى فى الجزائر من حرمان أهلها من الثقافة وخاصة الثقافة العربية هى[1] :

أولا : العمل بكل الجهود والوسائل على « تجنيس » الشعب الجزائرى وتجريده من شخصيته وإحلال اللغة الفرنسية محل لغته وهذا بالنسبة الى حرمانه من اللغة العربية .

(١) محمد صالح صديق : الجزائر بين الماضى والحاضر ، ص ٤٠

ثانياً : الحيلولة دون تكوين طبقة من صفوة القوم ، لاعتقاده أنها خطر عظيم يهدد النظــام ، ويعود على الاستعمار بالخسارة ، والاستعمار يعلم جيداً (أن كل ثورات العالم تبدأ فى أجود الأدمغة ثم تهبط إلى الجماهير) .

ثالثاً : تعميم سياسة نشر الجهالة والبؤس والفاقة ، للاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من الجهلة والأيدى العاملة ، لاستغلالهم بصورة قاسية تبعث على الأسى .

كما شن الاستعمار الفرنسى الحرب ضد الجنسية الجزائرية ، فقد أصدرت الحكومة الفرنسية سنة ١٩١٩ قراراً يقضى بأن الجزائريين فرنسيون ! !

وقاوم الشعب الجزائرى هذه المحاولات ، وأبدى تمسكه بالقيم الروحانية التى ظهرت فى نطاق الحضارة العربية الإسلامية نتيجة لإنشاء مدارس حرة على الرغم من معارضة السلطات الاستعمارية . وفى أثناء نضال التحرر كذلك بذلت الولايات الجزائرية جهوداً مشكورة لجعل الثقافة فى متناول الشعب .

وليس من شك أن عودة الجزائر إلى لغة القرآن كتاب العربية الأكبر تعتبر من أعظم انتصارات الشعب العربي فى هذا العصر ، ومن

أصدق الدلائل على أصالة الأمة العربية وقدرتها على الاحتفاظ بشخصيتها ، والإبقاء على كيانها ، بل إنها دليل ناصع على أن الشعب العربي يعود الى أصله مهما كانت المحن والنكبات التى تواجه مسيرته نحو الغد ، أو تعوق وصوله الى أهدافه السامية أملا فى إعادة بناء الحضارة ، وتحقيق سعادة الإنسان ..

يقول الكاتب الجزائرى مولود قاسم :

من الحقائق الناصعة التى عبر عنها « رونى ماهو » المدير العام لليونسكو ، فى حديث له لمجلة جون أفريك سنة ١٩٦٤ :

« إن الأمة التى لا تؤمن بنفسها لا وجود لها . وذلك أنه لا يكفى أن يكون لها سفراء ، ورئيس دولة ، وعلم ، وموظفو جمارك . فإذا لم يكن لشعبها طابع خاص به يعبر به عن نفسه وخصائصه ومميزاته وطرقه الخاصة به فى الحياة فلا وجود له ، واستقلاله استقلال سطحى لا يدوم . وإن الطريقة الوحيدة لأى شعب من الشعوب لكى يعبر عن وجوده هى الثقافة والوعى بالطابع الخاص الذى يميزه عن غيره ! » .

وما هى هذه الثقافة . وما هو هذا الطابع الخاص وتلك الميزات اذا لم تكن اللغة من بينها ؟

وأن جمال الدين الأفغانى هو الذى كان يقول قبل « رونى ماهو » بنحو قرن :

« لا سبيل الى تميز أمة عن أخرى إلا بلغتها ، وهـذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ما لا يحتاج معه الى دليل أو برهان » .

ونعود الى « روني ماهو » الذي يضيف :

« إن اليونسكو ترى أن مسألة التربيـة الوطنية والثقافة تأتى فى الدرجة الأولى من حيث سلم الأولويات فقط ، بل وأيضاً من حيث الاستعجال ، وذلك أن التربية هى أساس العلم والثقافة » .

إن التربية الوطنية الحقة لا يمكن أن تكون إلا باللغة القومية .

وإذا أردنا الآن أن نخلص إلى الجزائر ونلق نظرة فاحصة سريعة على مراحل تطورها فى هذا المجال وجدنا أنها مثل أخواتها من البلاد الشقيقة كانت لها مساهمتها فى التراث العربى الإسلامى المشترك ، ومن خلاله فى التراث الإنسانى العالمى . فكانت لها جامعاتها ، وكان لهـا علماؤها ، وكانت هذه الجامعات يؤمها علماء وفلاسفة من المغرب فى القرون الوسطى وبدء النهضة ، ولا نذكر منهم الآن إلا اثنين ، أحدهما « الأخضرى » وكان عالم كيمياء ، وكتابه كان يدرس فى جامعة مونبلييه فى فرنسا . والعالم الثانى كان ريمون لول الذى جاء إلى الجزائر ليدرس العربية والمنطق فى بجاية ، وهو صاحب كتاب « الفن الكبير » « أرس مكنا » المعروف فى المنطق .

وقد أستمر ازدهار تلك الجامعات حتى الى قرب الاحتلال الفرنسى الذى وجد آثارها حية .

فى كتاب « التعليم فى الجزائر » يقول المؤرخ الفرنسى بولار :

« كانت للجزائر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مراكز ثقافية مزدهرة وكانت تدرس فيها الفلسفة والآداب والعلوم المختلفة من طب وفلك وطبيعة وسياسة وغيرها على أيدى أساتذة لامعين » .

وقال السيناتور كومب فى مجلس الشيوخ الفرنسى ما يلى :

« ان الجزائر كان فيها عند احتلالنا لها أكثر من ألفى معهد ثانوى وعال » . ويضيف فالسن استرهازى وأوربان فى عدد يوليو ـ سبتمبر ١٩٥٤ من « مجلة التاريخ الحديث والمعاصر » تحت عنوان « الحالة الثقافية والأخلاقية فى الجزائر سنة ١٨٣٠ » .

« ان نسبة الأمية فى الجزائر سنة ١٨٣٠ كانت أقل منها فى فرنسا بالنسبة لتعداد السكان أى أنها كانت أعلى فى فرنسا !! » .

ويضيف بولار : « ان احتلال فرنسا للجزائر أحدث فوضى عامة فى ذلك العدد من العلماء والمفكرين وكثير منهم تركوا البلاد » .

وكانت تلك الثقافة طبعاً بالعربيـــة ، وطبلة العهد الاستعمارى

خنقت العربية ومنع تعليمها وكانت المدارس العربية تغلق وأموالها تصادر ، ومعلموها يلقى بهم فى السجون والمنافى .

ولم يكن هدف الاستعمار من خنق العربية محو الشخصية الجزائرية ، وإحلال الفرنسية محلها فحسب ، بل كان أيضاً يرى الى التجهيل واسدال ستار الظلمات على الجزائر وفصلها عن العالم العربى ، والعالم كله ... ولم يكن يسمح حتى بتعليم اللغة الفرنسية الا بقدر ما يحتاج اليه من أعوان له ، وتدلنا على هذه الإحصائيات الفرنسية الرسمية فى سنة ١٩٥٥ التى تقول ان نسبة الأمية فى الجزائر فى سنة ١٩٥٤ بلغت ٩٤ فى المائة بين الرجال و ٩٦ فى المائة بين النساء .

وقام ابن باديس ليصرخ فى وجه الاستعمار ، وليوجه ندائه الى الأمة الجزائرية الذى يتلخص فى قوله المشهور : « ان الجزائر لم تكن فرنسا وليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ... » وفى تلك الجمل الثلاث الخالدة :

« الجزائر وطنى والاسلام دينى والعربية لغتى » .

وواصل مهمته بعد وفاته أخوه الإبراهيمى ، وكلماته فى موقف الاستعمار من الجزائر ولغتها معروفة مشهورة ... وكانت اللغة العربية أحد مطالب عهد الكفاح الثورى السياسى ، ثم أحد أهداف الكفاح

الثوري المسلح ، الى آن تحررت بلادنا واسترجعت كل امكانيات العمل لتصحيح الوضع وإعادة المياه إلى مجاريها ووصل الخيط حيث قطعه العهد الاستعماري الطويل .

وليس غريبا أن تصبح العربية على ما أصبحت عليه بعد قرن وربع من احتلال من أبشع الاحتلالات خلال التاريخ .

ولكن الغريب ألا نتصدى نحن الآن بحزم لكل من يريد أن يماطل ويؤجل ويؤخر يوم إعادة هذه المياه إلى مجاريها الطبيعية بدعاوى ومزاعم فى غاية السخف والتناقض مع التاريخ والتعارض مع تجارب الأمم .

إن دعوى هذه الغربان التى أكل عليها الاستقلال وشرب ، أو ينبغى أن يفعل ، هى أن اللغة ليست إلا أداة ، وأن العربية كأداة لمسايرة الركب الحضارى والتقدم الفنى غير متهيئة وغير صالحة ، على الأقل فى مرحلتها الحالية ... ولذا ينبغى فى نظرهم التمهل وعدم التسرع وانتظار الغد البعيد !

وأصحاب هذه المزاعم هم فى الواقع رهناء الحبس ، وسجناء الماضى غير البعيد ! بل هم يتجاوزون حدود الجزائر فى زعمهم هذا ، إلى حد الرغبة فى شمول سائر أنحاء العالم بلغة مستعمر الأمس التى هى لغة ثقافة

حقاً، ولكنها أجنبية لا تأتى إلا فى الدرجة الثانية بعد اللغة القومية.

وهنا لا بأس من ذكر نكتتين، أو ثلاث، إحداها وقعت فى الجزائر فعلا:

فقد وجهت إحدى وزاراتنا فى أواخر سنة ١٩٦٢، أى بعد تأسيس الحكومة الأولى فى عهد الاستقلال، رسالة إلى الصين باللغة الفرنسية.. وقد كتبت إذ ذاك فى «المجاهد» مقالات منها:

«تعريب الأمخاخ والقلوب قبل تعريب الألسنة».

ولقد شاهدت فى الخارج نموذجاً آخر من هذا النوع من ضحايا العهد الإستعمارى لدينا، فهم يتوقعون من العالم كله أن يتكلم الفرنسية مثلهم، وعندما يأتون إلى بلاد أجنبية أخرى خارج المنطقة الفرنكوفونية يستغربون من عدم تكلم الناس هناك بالفرنسية!

ويرون كل شيء من خلال منظارهم ذلك!

وبعض هؤلاء المواطنين عاشوا سنوات فى بلدان أجنبية طيلة كفاحنا المسلح أو قبله أو بعده، ولم يكلفوا أنفسهم عنت تعلم لغة البلاد، وربما كانوا ينتظرون أن تتعلم تلك البلدان اللغة الفرنسية عنهم!

إنهم يشبهون ذلك الأسبانى الذى تروى عنه مقدمة كتاب «لا فائدة» لتعلم اللغة الدانمركية من أن أسبانيا عاش فى كوبنهاجن أكثر من

عشرين سنة ولم يتعلم اللغة الدانمركية ، وعندما زاره صديق له من أسبانيا وسأله عن الدانمركيين ، أجابه صاحبنا بقوله :

« إنهم يا أخى أمرة ! ... إنى هنا بين ظهرانيهم منذ عشرين سنة ولم يتعلموا الأسبانية بعد ! » .

إن هذه الضحايا للعهد البائد تدعى أن اللغة العربية قد تجمدت ، وتوعكت أعصابها ، وشاخت عروقها ، ولم تعد فى حالتها هذه صالحة لتدريس العلوم الحديثة !

ولنستمع إلى ماتقوله المؤلفة الألمانية سيجريد هونكى فى كتابها : « شمس الله على الغرب » عن العربية والعلوم :

« قبل ستة قرون كانت مكتبة كلية الطب فى باريس أصغر مكتبة فى الأرض ، إذ كانت تتكون من كتاب واحد مستعار ، إستعاره الملك الفرنسى لويس الحادى عشر مقابل ١٢ مارك ذهبيا ومائة شلن فضى ، لينسخ له منه أطباؤه الخواص نسخا يرجعون إليها كلما أصابه مصاب أو أحس بوعكة ما .

ولا يزال طلبة كلية الطب الجديدة فى شارع سان جرمان دى برى فى باريس يرنون فى مرورهم نحو مدرجات الكلية إلى تمثال قائم فى بهو الكلية ، وهذا التمثال لمؤلف الكتاب المذكور ، وهو واحد من أكبر

أطباء جميع الأمكنة والأزمنة ... إنه أبو بكر بن محمد زكريا الرازى !

وتضيف المؤلفة الألمانية فتقول :

« وكان يقال عن أى طبيب ماهر فى أوربا إنه روح ابن سينا ، وهذا حتى القرن السابع عشر !

ونظريات ابن سينا فى الجيولوجيا وكتابه عن المعادن ، ظلت المرجع الأساسى لأوربا حتى القرن الثامن عشر » .

أما كتابه « القانون فى الطب » فقد ذكر المؤرخ الفرنسى للفلسفة فى كتابه أنه كان يدرس فى جامعة لوفان ببلجيكا حتى سنة ١٩٠٩ !

وتعود إلى المؤلفة الألمانية إذ تقول :

« ان العرب الذين ازدهرت جامعاتهم منذ القرن التاسع الميلادى، هم الذين أمدونا بنموذج الجامعات وتقسيمها الى الكليات المختلفة ، والحاق الفروع الضرورية بكل كلية ، مثل المستشفيات والمخابر ، لإجراء التجارب .. ومنهم تعلمنا اجراء الإمتحانات ومنح الشهادات، وعنهم أخذنا مناهج التعليم .. وأخيرا ، منهم أخذنا المحتوى أيضاً ، أى مادة هذا التعليم ، فلم نأخذ منهم الشكل فقط ، بل المحتوى أيضاً ، ولم نتلق منهم الكأس فارغة ، بل تلقيناها مليئة بالخمر المعتقة !

فالعرب هم الذين أنشأوا الكيمياء التجريبية ، والطبيعيات بالمعنى

الحالي ، والجبر والمقابلة (لابن حيان والخوارزمي) ، والرياضة وحساب المثلثات الكروية والبيولوجيا وعلم الاجتماع .

وفي الفلسفة . . . ألم يكن تأثير الفلاسفة المسلمين فاصلا في تاريخ الفكر الفلسفي الأوربي ؟

لقد تكلم الغزالي عن الزمن والمكان في إحياء علوم الدين بقرون قبل أو جست كانت ، وإن كان ليس بذلك التوسع والتفصيل ، وأنية ابن سينا تجد لها صدى لدى كل من ديكارت وفيخته ... وعندما نقرأ بعض تعابير ديكارت وكانت عن حرية الاختيار نظن العلاف وأبا اسحاق النظام يتكلمون ! .. وأخيرا ، وليس آخراً ، أن ابن رشد قد قد سبق ، كانت ، بقرون إلى القول بذلك الأمر الجازم أو الالزامي المعروف !

وقد ظلت فلسفة ابن رشد هي محور الحديث في جامعات بولونيا بإيطاليا ، وكولونيا بألمانيا ، وفي السوربون بفرنسا ! . . . وكان طلبة الحي اللاتيني إذ ذاك ، بل والأساتذة أيضا قبل أن يبدأوا أية مناقشة فلسفية يسأل بعضهم بعضا كمدخل ولمعرفة موقف الخصم مقدما : « هل أنت مع ابن رشد أو ضده ؟ » .

والذي يروى لنا هذا ليس من يعطفون بصفة خاصة على الإسلام

والفلسفة الإسلامية ، ومع ذلك لم يجد بدآ من التغلب على عواطفه والاعتراف بهذه الحقيقة . . إنه أرنست رينان فى كتابه « ابن رشد والرشدية » .

ويقول لنا مؤرخ الفلسفة الفرنسى المعروف « ريفو » فى كتابه « تاريخ الفلسفة » : إن تأثير الفلسفة الإسلامية على الأوربية ظل سائداً حتى أوائل القرن التاسع عشر .

والآن نتساءل : ماهى اللغة التى عبر بها أولئك المسلمون عن جميع هذه الجوانب المختلفة للكون والكائنات ومايربطهما من علاقات ؟

إنها العربية التى كانت أيضا اللغة السائدة فى قصور ملوك النورمان وقياصرة ألمانيا فترة من الزمن !

لقد كان فيلهلم الثانى ملك صقلية ينتقى مساعديه وأطباءه ووزراءه من بين العرب ، وكان هو نفسه يقرأ ويكتب ويتكلم العربية التى كانت لغة قصره .

ويذكر لنا ابن جبير الغرناطى فى رحلته التى قام بها سنة ١١٨٥ إلى بالرمو عاصمة صقلية ، بعد أن احتلها النورمان أن نساء بالرمو المسيحيات يقلدن المسلمات لا فى ملبسهن فقط ، بل فى لغتهن أيضا . فكن يتكلمن بالعربية !

وكان فريدريك الثانى الألمانى ملك صقلية وقيصر الأمبراطورية الألمانية الرومانية ، المقدسة ، وحفيد فريدريك بارباروسا يتكلم العربية التى كان يجيدها كافته الألمانية ، ودرس الفلسفة والجدل بالعربية لدى قاضى المسلمين فى بالرمو .

وهكذا فكما كانت الفرنسية هى اللغة الغالبة على أوربا فى القرن الثامن عشر ، وكانت لغة القصر فى عاصمة بروسيا فى وقت فريدريك الكبير وفى عاصمة روسيا فى وقت القيصرة كاترين كانت العربية هى لغة فيليلم الثانى وروجى الثانى ، وخاصة فريدريك الثانى ملك صقلية وقيصر الأمبراطورية الرومانية الألمانية . كما كانت العربية لغة العلم والفلسفة لدى علماء أوربا الذين كانوا يحرصون على تعلمها فى القرون الوسطى وبدء النهضة الأوربية ، فتعلمها البرتوس ماقنوس وأبيلاردوس فى ألمانيا ، وتعلمها القديس الفيلسوف الإيطالى توماس ألاكوينى .

أما فى أسبانيا ، فزيادة عن ريمون لول الذى ذكرنا أنه درس فى الجزائر ، وأنه صاحب الكتاب المعروف فى المنطق « الفن الكبير » وعن الفيلسوف اليهودى الأندلسى موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد ، والأستاذ الروحى لسبينوزا وسائر الفلاسفة اليهود فى مختلف أنحاء أوربا فيما بعد حتى القرن الثامن عشر ، نجد أن العربية غزت سائر الأوساط الأسبانية !

ولنستمع إلى ما يقوله الكاتب الأسبانى القديم الفارو فى القرن التاسع الميلادى ، أى فى عهد عبد الرحمن الثانى :

« ان أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربى ، فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها ... ولقد ساء ذلك بعض كبار الأسبان فقال :

ان اخوانى المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها ، بل لاقتباس الأسلوب العربى الفصيح .

فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل ..؟. وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء؟

« وا أسفاه » ! ان الجيل الناشىء من المسيحيين الأذكياء لايحسنون أدبا أو لغة غير الأدب العربى ، ويجمعون منه المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ، ويترنمون فى كل مكان بالثناء على الذخائر العربية . بينما هم حينما يسمعون بالكتب المسيحية يأنفون من الاصغاء اليها ، محتجين بأنها شىء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات .. فيا للأسى ! أن المسيحيين قد نسوا لغتهم ، فلا تكاد تجد فيهم اليوم واحدا فى كل ألف يكتب بها خطاباً الى صديق !!.. أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ! . »

وتجدون هذا النص بالعربية فى كتاب العقاد « أثر العرب فى الحضارة الأوربية » . وقد نقله عن المستشرق الهولندى المعروف رينهارت دوزى فى ص ٣١٧ من الجزء الأول من كتابه الكبير « تاريخ مسلمى الأندلس » .. وهو نفسه نقله عن المجموعة الأسبانية الكبيرة لألفاروا تحت عنوان « المجلد الحادى عشر الصفحة الحادية عشرة » .

وبصفة عامة كانت العربية لغة الدراسة والبحث للكثير من العلماء والفلاسفة الأوربيين الذين مهدوا لعصر النهضة التى أدت بدورها الى انطلاق أوربا ، ذلك الإنطلاق الذى لم يكن ليتم لولا منطلقه الحقيقى، ألا وهى الحضارة الاسلامية التى كانت لغتها العربية(١) !

كانت الأوساط الثقافية فى الجزائر قد شغلت فى سنة ١٩٦٦ ، بالنقاش الحاد الطويل الذى دار حول اللغة العربية وحول إمكانية تطويرها وإحداث تغيرات فى شكلها وبنائها .. فى حروفها الهجائية وما يتبعها من حركات وحول مشاكل اللغة من اعراب وصرف وغيره .. وقد دل هذا النقاش على الأهمية التى تمثلها قضية العربية فى الجزائر كلغة قومية حاول المستعمر القضاء عليها .

(١) مولود قاسم : مجلة الأدب ، يوليو ١٩٦٨ .

وقد انقسم الرأى إلى فريقين . . . الفريق الأول — الذى أثار المشكلة — يرى أن اللغة العربية بوضعها الراهن فى الجزائر وفى العالم العربى فى حاجة إلى تغيير جذرى يجعلها أسهل ويجعل منها لغة تساير العصر ولا تتخلف عنه . . والفريق الثانى يرى أن اللغة العربية أثبتت على مر العصور أنها لغة حضارة وفن ، وثقافة . . لغة حية . . تتطور وقادرة على أن تساير الزمن . من هذا الفريق برز رأى الكاتب « محمد سعيدى » الذى عرضه فى جريدة « المجاهـــد » حيث تناول القضية بموضوعية وروح علمية وقال ضمن حديثه أن قضية الأعراب فى اللغة كنظام قضية عامة لا يمكن تجزئتها ، « وليست اللغه العربية وحدها هى المعربة — لها إعرابها الخاص — بين لغات العالم ... هناك لغات حية متطورة مثل اللغة الروسية تشاركها هذا الجانب وليست دون العربية سهولة . . !!

وقال أيضا أن اللغة العربية كسائر اللغات تخضع لقوانين علمية وتاريخية ولغوية وأن قضيه الصعوبة والسهولة فى كل اللغات هى أمور نسبية .

وألقى الشاعر الجزائرى الدكتور أبو القاسم سعد الله ، محاضرة بقاعة جامعة الجزائر ، تحدث فيها عن دور الجزائر فى بلورة القومية

العربية ، وألقى الضوء على الدور القومى الذى قامت به منذ الاحتلال سنة ١٨٣٠ ، فقد كانت الجزائر هى أول بلد عربى ثار ضد الاستعمار الأوربى ، ولهذا كانت مركزاً لميلاد القومية العربية . . وكان حمدان خوجة أول مثقف عربى ثار فى الجزائر دفاعا عن عروبته وقوميته وتعرض من قبل الاستعمار للنفى والتشريد وصودرت أملاكه وكتبه . ثم تلاه الأمير عبد القادر الجزائرى الذى قال عنه المحاضر بأنه لم يكن فقط بطلا للمقاومة الشعبية ضد الاستعمار الفرنسى بل كان له دوره الطولى فى الدفاع عن القومية العربية ودعمها وأنه بفضل اعتماده على الشعب ونضاله من أجل الحرية ومناداته بالتضامن الإسلامى وإيمانه بالعروبة يعتبر رائداً من رواد القومية العربية بمعناها الحديث .. كذلك أوضح سعد الله فى حديثه كيف أن الجزائر منذ عهد مبكر كانت تتجاوب تجاوبا تاما مع المشرق العربى فى كل أحداثه ومقاومته للغزاة والطامعين .. وليست ثورة الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر إلا تأكيداً وإيمانا بالقومية العربية ولولا إيمانه بالعروبة والإسلام لما استمر كفاحه طوال ١٧ عاما رغم الفارق فى الإمكانيات البشرية والعسكرية وثورة نوفمبر سنة ١٩٥٤ هى امتداد لمركة العروبة من أجل الحفاظ على وحدة الشعب العربى ومقوماته وتراثه ولغته وحضارته [1] .

(١) عبد الله ركيبى : مجلة الكاتب – أكتوبر ١٩٦٦

وفى الجزائر دعوة جديدة للقضاء على تأثير الفن الغربى الذى عمر فى الجزائر طيلة فترة الاستعمار منذ سنة ١٨٣٠ . ولقد ظهر من الاتجاهات القومية اتجاه يحاكى المنمنمات فى التصوير والتلوين والتزيين . وبلغ محمد راسم فى ذلك مبلغا عاليا يوازى ماوصله بهزاد فى فارس (إيران) قديما .

ويقول الرسام محمد عون (١) : إن أغلبية الفنانين الجزائريين ، كل بأسلوبه الخاص مجد الثورة وتغنى بها ، وبكفاح الشعب وشهداء حرب التحرير . ومن الواضح أن مواصلة الفنان فى رسم الواقع الجزائرى اليوم ، يقدم نظرة وفكرة عامة عن التحولات الاجتماعية والسياسية فى الجزائر .

وبما أنه معروف بأن الفن يقوم بحق بوظيفة إجتماعية ، فإن الشىء الذى يطرح حتما هو مشكل الالتزام ، ، ولا وجود لمعنى فكرة الفن للفن ، وأن الفن هو أيضا الإنسان والخيال والفرحة ، والبناء والواقع اليومى لكل الأيام المتجددة بروح الفنان الذى يتشبع بتاريخ شعبه .

ويقول : إن الرسم الجزائرى بقى حتى الآن تجريديا ، لأن هذا راجع فيما أعتقد إلى عاملين : فمن جهة يوجد رسامون ينتمون إلى التقاليد الفنية الإسلامية والأفريقية الكبرى ، التى ساهمت فى خلق الحركة

(١) مجلة الجيش الجزائرية — أغسطس ١٩٦٩ .

التحريرية بأوربا ، ومن جهة أخرى يوجد رسامون لهم تكوين ، وأسلوب عصرى ينفصل عن أى تمثيل إنسانى . ولكن أعتقد أنه بفضل ثورتنا يوجد رسم جزائرى ذو شكل يتميز بالتمثيل الإنسانى ، وهنا أذكر على الخصوص فارس وهوامل وغيرهما .

إن أحسن رسام فى رأيى هو الذى يصهر بصفة ايقاعية وحرة ، الثروات الفنية لماضينا ، ومطامح حاضرنا الذى يجب أن يكون له وجهه الخاص ، ودلالته الرمزية ، ومضمونه الواقعى .

. . . .

وإذا تحدثنا عن المسرح الجزائرى .. نقول : إن المسرح مازال حديث السن نسبياً ، ولا توجد اتجاهات فكرية متعارضة بمعنى الكلمة داخل حركة المسرح الجزائرى أو بين الفرق المختلفة التى تعمل فى هذا الميدان ، ويمكن القول إن فكرة المسرح الملتزم تنشر ظلالها على المسرح القومى الجزائرى .. أما فى القطاع الخاص فى المسرح — فما زالت فكرة التمثيل من أجل التمثيل تسود هذا القطاع ، وبالطبع هذا القطاع من المسرح لا يضم المسرح التلقائى . الذى يزدهر فى أماكن متفرقة من البلاد .

وأهم مشكلة تواجه المسرح الجزائرى إنما هى التأليف المسرحى ،

فالمسرح حديث العهد فى الجزائر ، ولذلك فهو يفتقر إلى المخرجين والمؤلفين والنقاد الذين يستلهمون أرض الجزائر ، وإن كنت على ثقة من أن تغيير البناء السياسى والاقتصادى فى الجزائر سوف يتيح الفرصة لعدد كبير من المواهب الجديدة التى يمكنها أن تقود حركة مسرحية أصيلة وناجحة ولا سيما أن هناك أنواعا متعددة من الألعاب الجماعية والمسرحيات الثقافية والمداحات تعيش بين الناس برغم ١٣٠ عاما من الاحتلال ، يمكن أن تكون أساسا لفن مسرحى أصيل .

وفى الجزائر ٤٥ فرقة ، من الفرق المسرحية ، بيد أن المسرح القومى يعد الأب بالنسبة لها من حيث عدد أعضائه وجودة إنتاجه . واللغة السائدة فى المسرح هى اللغة العربية العامية الجزائرية وسياسة نشر اللغة العربية التى تنتهجها الحكومة سوف تمتد إلى المسرح الجزائرى . . .

الفصل الرابع

لقاء معهم . . .

ابن باديس

قضى الاستعمار قضاء كليا على المدارس والكليات الجزائرية التى كانت مزدهرة فى مختلف أنحاء الجزائر قبل الاحتلال ، ومنع المثقفين من نشر العلم وفرض اللغة الفرنسية على الشعب ، واعتبر اللغة العربية لغة أجنبية عنهم . وقد صدر قانون فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٠٤ يقضى « بأنه لا يجوز لأى معلم مسلم أن يفتح أو يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية إلا بترخيص من عامل المنطقة وقائد الفيلق العسكرى ومن يخالف يعتبر مسئولا أمام القانون ويعاقب بالسجن أو الغرامة أو بكلتا العقوبتين » .

وقد قاوم الشعب الجزائرى هـــذه المؤامرة ، وأصر على طابع الجزائر الإسلامى العربى الذى لا سبيل إلى محوه ، أو القضاء عليه .

وليس شك أن حركة عبد الحميد بن باديس كانت أكبر علامة على التحدى ورد الفعل ، فقد حاولت فرنسا سنة ١٩٣٠ أن تحتفل بمرور مائة سنة على إحتلال الجزائر أى على « تغريب الجزائر » وبلوغها الغاية فى الأدماج والفرنسة ، ولكن حركة جمعية العلماء محت هذا المعنى محوا تاما ، وأكدت بقاء الجزائر عربية مسلمة ، وظلت عبارة ابن باديس تدوى وتصنع الأجيال .

(إن الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تريد أن تصير فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت . بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها ، وفي أخلاقها وعنصرها ، وفي دينها ، لا تريد أن تندمج ، ولها وطن محدود معين ، هو الوطن الجزائري .

(إن هذه الأمة كانت قبل الإستعمار ذات مقومات من دينها ولسانها ، وذات مقومات من ماضيها وحاضرها ، كانت أرقى عقلا وأسمى روحا ، وأوفر علما وأعلى فكرا من أمم البلقان لذلك العهد ، ولو سارت سيرها الطبيعي . ولم يعترضها الاستعمار بعوائقه وبوائقه لأنجبت المعلم الذي يلي الحكمة ، لا المعلم الذي يمالىء الحكومة ، إننا أمة علم ودين ، لم ينقطع سندنا فيهما إلى آبائنا الأولين ، فلو أن المعلم الذي جاءتنا به فرنسا علم ناصحا وربى مخلصا ، وثقف مستقلا ، ولم يقيده الاستعمار ببرامجه لظهرت آثاره الطيبة في الأمة) .

وقد كافح عبد الحميد بن باديس طويلا لتحقيق بعض المطالب الاصلاحية كتحرير الدين الاسلامي من سيطرة فرنسا وحرية التعليم العربي ، وتحرير القضاء الاسلامي ، وحرية الصحافة العربية ، وكافح أيضاً لإلغاء بعض القوانين والقرارات الجائرة مثل قرار « ميشيل »

الذى يقضى بمنع العلماء من مزاولة الوعظ والارشاد والقاء الدروس العربية والدينية فى المساجد وبمراقبة نشاطهم بصفة عامة .

واستطاع ابن باديس أن يخلق جيلا جديداً لا يعيش لنفسه وإنما يعيش — كما عاش ابن باديس — للجزائر والعروبة والإسلام .

ولم تقتصر توجيهاته وتعليماته على الناحيتين العلمية والدينية ، بل كانت تستهدف فى أوسع مجالاتها تكوين العقلية الثورية فى الشباب ، وخلق الفكرة الاجتماعية الصالحة للبقاء ، ونفخ الروح الوطنية فى القلوب ..

يقول ابن باديس :

[من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التى نؤمن بها ويؤمن بها المؤمنون الصادقون فقد حاول عبثاً قلب الحقائق ، ونحن لا نتزحزح عن تلك الفكرة قيد شعرة مهما طغى سيل الكوارث على أمة لها ما للشعب الجزائرى من الصفات المرغوب فيها الكامنة كمون النار فى الكهرباء . . آه . . آه . . أيتها الحرية المحبوبة ، واشوقاه إليك ، بل واشوقاه إليهم ، المحيا محياهم ، والممات مماتهم . أنقذ اللهم بهم وطنك وأحى بهم عبادك] .

ومن أبرز شعر ابن باديس هذه القصيدة التى كانت نشيد الطلائع الزاحفة :

شعب الجزائر مسلم   وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله   أو قال مات فقد كذب
يا نشء أنت رجاؤنا   وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها   وخض الخطوب ولا تهب
وارفع منار العدل والإحسـان واصدم من غصب
يا قوم هذا نشؤكم   وإلى المعالي قد وثب
كونوا له يكن لكم   وإلى الأمام ابناً وأب
وأذق نفوس الظالمـين السم يمزج بالرهب
واقلع جذور الخائنـين فنهم كل العطب
واهزز نفوس الجامديـن فربما حيي الخشب
نحن الألى عرف الزما   ن قديمنا الجم الحسب
ومعـين ذاك المجـد في نسل العروبة ما نضب
من كان يبغي ودنا   فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغي ذلنا   فله المهانة والحرب
هذا نظام حياتنا   بالنور خط وباللهب
حتى يعود لشعبنا   من مجده ما قد ذهب
هذا لكم عهدي به   حتى أوسد في الترب
فإذا هلكت فصيحتي   « تحيى الجزائر والعرب »

قاومت فرنسا حركة ابن باديس، بيد أن المجاهد الكبير لم يتوقف:

(إن هذا العبد - يقصد نفسه - له فكرة معروفة، وهو لن يحيد عنها، ولكنه - وهنا محل الشاهد - يبلغها بالتى هى أحسن، فمن قبلها فهو أخ فى الله، ومن ردها فهو أخ فى الله، فالأخوة فى الله فوق ما يقبل وما يرد.

(والاستعمار ما مكن لنفسه فى بلاد الإسلام إلا بقوة المسلمين، فلو أنهم قطعوا عنه قوتهم لا نكمش، وانقلب إلى أهله مذموماً مدحوراً).

(أنا أحارب الاستعمار لأنى أعلم وأهذب، ومتى انتشر التعليم والتهذيب فى أرض أجدبت على الاستعمار، وشعر فى النهاية بسوء المصير).

وهنا تبدو مفاهيم عبد الحميد بن باديس واضحة القسمات، إنها مقاومة الاستعمار بالتعليم، وهى الدعوة التى حمل لواءها الشيخ محمد عبده قبل نهاية القرن التاسع عشر، وأذاعها فى تونس والجزائر خلال زيارته الثانية سنة ١٩٠٣، فقد آمن ابن باديس بأن العمل الأول فى مقاومة الاستعمار فى الجزائر هو الحفاظ على اللغة العربية، لغة القرآن وذلك بنشرها واذاعتها، ونشر التعليم بين أبناء الشعب كوسيلة إيجابية وفعالة لمقاومة الاستعمار.

وهو يؤمن بالتراب الجزائرى ، والجزائر جزء من الأمة العربية :
(إن لنا وراء هذا الوطن أوطاناً أخرى عزيزة علينا ، هى دائماً منا على بال ، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص ..)

* * *

فى سنة ١٩١٣ عاد عبد الحميد بن باديس إلى الجزائر من المشرق العربى ، وقد عزم على القيام بالعمل الإيجابى الذى وهب له حياته ، فبدأ يخطب فى جامع قسنطينة ، يعلم ويربى ويوجه ، فلما منع من التدريس لم يستسلم ولم يركن إلى الهدوء والدعة ، بل انتقل إلى الجامع الأخضر ليواصل أداء رسالته وعرفت دروسه هناك بالدروس العلمية ، كما عرف بكلماته فى مسجد سيدى قموش .

ورأت القوى الإستعمارية فى الجزائر فى دعوة ابن باديس خطراً يهدد مصالحها ، فساقت ابن باديس مرات للمحاكمة ، ثم دبرت مؤامرة لإغتياله ولكن لم يقدر لها النجاح .

وعندما سافر عبد الحميد بن باديس إلى فرنسا مع اللجنة الوطنية سنة ١٩٣٦ لتنفيذ مرسوم ١٩٠٧ الذى يقضى بفصل الدين عن الدولة ، والذى طبق على الأديان الأخرى ما عدا الدين الإسلامى ..

قال له دلاديه ، رئيس وزراء فرنسا فى ذلك الوقت :

— إن لدى فرنسا مدافع طويلة .

فرد ابن باديس فى ثقة وقوة قائلا :

— إن لدينا مدافع أطول .

فدهش رئيس الوزراء الفرنسى وقال :

— ما هى هذه المدافع ؟

فأجاب بن باديس :

— إنها مدافع الله ...

* * *

إن دعوة ابن باديس كانت تستهدف بيان أن للجزائر ثقافة مميزة هى الثقافة العربية الإسلامية ، وعلى ذلك فإن الجزائر ترتبط روحياً وتاريخياً بالعالم العربى ، وأن للجزائر تاريخاً قومياً وأن ذلك يتضح بجلاء خلال الحقبة التى ظهرت فيها الجزائر (القرن ١٦ إلى القرن ١٨ م) كقوة بحرية ضخمة فى البحر المتوسط .

وقال ابن باديس — قبل أن يموت فى ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠ — حكمته المشهورة :

« إن الأمة الجزائرية لن تزال حية ماحافظت على دينها ولغتها » .

وقد دافع ابن باديس عن الوحدة بين الشعوب العربية ، فنى سنة ١٩٣٨ كتب يقول :

« هذه الأمة العربية تربط بينها — زيادة على رابطة اللغة — رابطة الجنس ورابطة التاريخ . . فالوحدة بينها متحققة لا محالة . ولكنه استدرك قائلا : إن الوحدة تتم بين شعوب متحررة ، أما الوحدة السياسية بين الأمم المغلوبة على أمرها ، فأمر غير ممكن ولا معقول ولا مقبول » . وقد أثبت ابن باديس أنه ينتمى إلى كل الشعوب العربية بقدر ما ينتمى إلى الجزائر مما يعكس تجاوبه مع روح ومفهوم القومية العربية فى مرحلة متقدمة من النضال العربى الوحدوى .

محمد ديب

من بذور المناضلين على أرض الجزائر ، نبت محمد ديب فى تلمسان فى ٢١ يوليو سنة ١٩٢٠ ؛ وبعد أن درس فى مسقط رأسه ثم فى مدينة وجدة زاول عدة مهن مكنته من الالتحام بالطبقات الشعبية الكادحة، ودراسة نفسيات أهلها وأحوالهم المعاشية . فقد عمل صانع سجاد ، ومحاسباً فى عمل تجارى ، ثم معلماً وصحفياً إلى أن تفرغ للأدب نهائياً.

وكانت باكورة إنتاجه الأدبى رواية « البيت الكبير » وتصور الحياة الجزائرية فى بؤسها وشقائها وتناحر ناسها وآمالهم . وتجرى حوادثها سنة ١٩٣٩ ومركزة حول البطل عمر وهو صبى لم يبلغ الحلم يعيش مع أمه الأرملة عانية فى بيت للأجرة تقيم فى غرفه أسر العمال الفقراء . وهو أشبه بخلية النحل حيث يتكدس أفراد كل أسرة فى غرفة واحدة ، ويسوده فى النهار صراخ الأطفال وثرثرة النساء وفوق هذا فقد : « احتجزت غرف الدار فى الليل عدداً كبيراً من الأطفال حتى إذا طلع الصباح قذفت بهم إلى صحن الدار فى فوضى وضوضاء لا مثيل لها . فالأطفال ذوو اللعاب السائل ، والوجوه اللامعة من أثر المخاط يمرون واحداً واحداً . وكان من لايستطيع منهم المشى يزحف

رافعاً إسته إلى السماء ، وكانوا يكون ويزأرون جميعا ، ولم تكن الأمهات ولا بقية النساء يرين فائدة فى الاهتمام بالأمر . . » .

ولم يكتف المؤلف بتصوير حياة سكان الدار اليومية ، بل أشركنا من خلال عمر الصبى ، الذى يعيش مع أمه عائنة وأختيه عيوشة ومريم فى غرفة واحدة عيشة قاسية يسيطر عليهم شبح الجوع والحرمان واليأس من الغد . .

وقد تجمعت فى الرواية صور ولوحات عن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التى خلقتها الأوضاع الاستعمارية فى الجزائر ، كمحاربة اللغة العربية ، وعمليات الدمج التى تستهدف إذابة الشخصية الجزائرية فى البحر الفرنسى ، وسياسة الإفقار والتجهيل التى هى من أبرز سمات الاستعمار الفرنسى ، كل هذا يؤديه محمد ديب فى كلمات قليلة بليغة رقيقة ، مثال على ذلك وصفه درس الأخلاق الذى يلقيه المعلم حسن على تلاميذه الصغار ، فقد سألهم ذات يوم :

— ما هو الوطن ؟

فلم يفهم الصغار ما تعنيه هذه الكلمة العربية التى بقيت بعد السؤال «كأنها معلقة فى الفضاء تتأرجح » فما كان من أحد التلاميذ الراسبين إلا أن رفع أصبعه مجيباً :

— إن فرنسا هي وطننا الأم !!

وكان الجواب وحده مفتاحا لعدة تساؤلات ثارت في نفس عمر يعالجها بعقليته البسيطة وغريزته العفوية ، فهو يعلم أن فرنسا عاصمتها باريس ، وأن هؤلاء الفرنسيين الذين يراهم في المدينة يأتون من فرنسا ، وهم لذلك يركبون البحر في الذهاب والإياب فكيف يصح والحالة هذه أن تكون فرنسا أمه ، وأمه هي عائبة ، وهي في البيت وليس له أمان ، إذن لقد اكتشف الكذبة ، ففرنسا ليست أمه ، وهكذا كان الصغار يرغمون على تعلم الأكاذيب لينجوا من العقاب والضرب بقضبان الزيتون !

بيد أن المعلم حسن لم يكن ليدع هذه الفرصة تمر دون أن يوضح لتلاميذه في شيء من العناء والحرج أن الوطن هو أرض الآباء . وهو البلد الذي استوطنه أهله منذ أجيال بعيدة ، حتى إذا جاءه الأجانب من الخارج ليحتلوه أصبح الوطن في خطر ، فهؤلاء الأجانب أعداء يجب على أصحاب البلاد أن يهبوا في وجوههم ليردوهم من حيث أتوا ولو أدى هذا إلى التضحية بأرواحهم ، وأن الوطنيين هم الذين يحبون وطنهم ويعملون لخيره وصالحه .

وتثور مشاكل الواقع الجزائري الأليم من خلال التناضل الذي

أطلق عليه المؤلف اسم حامد سراج ويظن أنه محمد ديب بعد بلوغه العشرين من عمره، ينطق باسمه ، ويعبر عن آرائه وأفكاره الثورية تجاه ما يعانيه الشعب الجزائرى من الظلم الاجتماعى ، والاستغلال الاقتصادى. إن حامد سراج الذى لاحقه رجال الأمن من مكان إلى مكان ، وفاجأوا البيت الكبير مرات للقبض عليه مروعين النساء والأطفال هو نفسه — الذى وقف خطيبا فى العمال الزراعيين الذى جاءوا من كل فج عميق لسماعه فى بلد يعيش فى جو الإرهاب البوليسى.

[إن عمال الأرض لا يستطيعون العيش بهذه الأجور التى يقبضونها ، فهم سيتظاهرون بقوة . يجب أن نضع حدا لهذا الشقاء ، إن العمال الزراعيين هم أولى ضحايا الاستغلال المنتشر فى أنحاء البلاد، إن أجر العامل عشر فرنكات يوميا وهو أمر غير مقبول ، يجب أن يطرأ تحسن فورى على حياة العمال الزراعيين ، ويجب العمل بقوة لبلوغ هذا الهدف إن العمال المتحدين يعرفون كيف ينتزعون النصر من المستعمرين وحكومة الحاكم العام ، وهم مستعدون أبدا للنضال].

إن حالة العمال فى المدن لم تكن بأفضل من حالة عمال الريف، ففى الرواية مشاهد تصور هؤلاء فريسة للبطالة المنتشرة بين أرباب جميع المهن وهم كلهم يعانون الحرمان والجوع ، ويشتغل نساؤهم

وأولادهم أيضاً ولكن دون جدوى . وهذا ما جعل أم عمر تصيح قائلة : « ... حتى ولو عملنا طوال الحياة لما بقى لنا فى نهايتها سوى ملاجىء العجزة والشحاذة وإذا جاء الموت قبل ذلك حمدنا مجيئه ، فالموت لنا عطاء من ذهب ، وإذا لم يأت هذا الموت أو لم يرض بنا ، حتى إذا عجزنا عن العمل وظللنا على قيد الحياة فذلك هى المصيبة الكبرى . وإذا لم يسع إلينا القبر حينئذ سعينا اليه ، وإذا استطعنا شربناه بالموت ، لقد عشنا على هذه الأرض وانتهى كل شىء فنكون بذلك قد شهدنا شقاءنا إذ لم يبق شىء يغرينا فى هذه الدنيا » .

وفى الرواية صور فنية ممتازة تدل على أصالة الكاتب وامتلاكه ناصية التعبير عن الحقيقة الانسانية والاجتماعية التى يعيشها أبطال روايته الممثلين لأغلبية الشعب الجزائرى . ومن هذه الصور الرائعة قوله فى وصف بطله عمر النائم فى فراشه :

[وكان عمر لا ينفأ عن التقلب فى فراشه ، وقد استولى عليه الأرق ، وكانت ثيابه تزعجه ، وفى الهزيع بدأت الحكة تنتاب كل جسمه ، فكانت الأظافر تكشط طويلا البطن والأليتين والفخذين وكان البق عندما تسيطر الظلمة ينساب من مخبئه متسللا إلى فرش النائمين ومع أن الحيطان كانت مطلية بالكلس فكان يرى كثيراً منه ، وكانت الأم

عانية تضيء الغرفة مراراً فى الليل وتسحق عدداً منه ، وفى النهار كنت ترى خيوطاً سمراء طويلة تركتها الأصابع التى مست البق على الحائط].

وقوله فى وصف قرية فى أعلى الجبل :

« يسكن القرويون فى حفر فى الجبل ، الرجال والنساء والأطفال والحيوانات ، وتقع مقبرة القرية فوق رؤوسهم على المرتفع ، وهكذا يسكن الأحياء تحت الأموات » .

تلك هى لمحة عن رواية البيت الكبير التى جعل منها محمد ديب رواية الجزائر القومية والتى حقق بها رسالة الأديب الذى يكشف حقيقة الأوضاع التى كان يعيش فيها الشعب الجزائرى .

وقد احتفلت الأوساط الأدبية فى فرنسا برواية « البيت الكبير » وكللتها بجائزة « فينيون » سنة ١٩٥٣ .

ومع طلقات ثوار الجزائر فى جبال الأطلس كانت قصة « الحريق » تجذب سنة ١٩٥٤ قلوب أحرار العالم وتشد عيونهم إلى جبال الاطلس المجيدة متحدثة عن مجاعات الفلاحين صانعى الخبز !

وقد جعل محمد ديب قرية « بنى بوبلين » مسرحا لروايته ، وهى قرية جبلية تشرف على سهول يسكنها الفرنسيون المستعمرون ، وتجرى الحوادث بين المنطقة الجبلية الجرداء التى يقطنها الفلاحون الجزائريون ،

والسهول الخصبة التي كان يستغلها وينعم بخيراتها المستعمرون .
فالمتطقتان إذن تصوران الصراع بين الفقر والغنى ، والمغتصب المغلوب على أمره والغاصب المتمادى فى عدوانه . ومظاهر الفاقة والبؤس وإن تعددت فى الريف فهى ثمرة الاستعمار وما يفرزه من ظلم واستغلال إقتصادى واجتماعى . وإذا كان الجزائرى هو ذلك الرجل الذى يعانى من الحرمان والجوع ، فإن الفلاح الجزائرى أسوأ منه حالا ، ولذا فإن الصبى عمر بطل رواية « البيت الكبير » الذى نقله المؤلف إلى الريف ليتمرس بهذه الحياة الجافة الخشنة لم يتمرد على بؤسه عندما رأى أمثاله من أطفال الريف الذين يشبهون - كما يقول محمد ديب - « الجراد لهزالهم وضعفهم » ، فإن « ثيابهم عبارة عن خليط من الخلق المجموعة ، ينتعلون فى أرجلهم جـــلود الخراف مشدودة بخيطان « المصيص » ، ويركضون حفاة فى أغلب الأحيان ، تفتحت عيونهم ذوات الأحداق السمراء والخضراء ، على أرض جرداء تركت لهم ، يهيمون على وجوههم فى مجموعات ، ويغمرهم المرح وسط الوحل وغبار الطرقات ، وإذا كان يغلب على أطفال المدن الخفة والحدة والطيش فإن أطفال الريف رضاء ، قد أكسبتهم عشرتهم للحيوانات فى قرائم النائية المنعزلة انكماشاً وسكينة وفهماً أكبر للشقاء !! » .

ورواية « الحريق » تعرض صورا رائعة ، ولمحات ذكية ، تعبر

كل واحدة منها عن فكرة اجتماعية أو ترسم صورة واقعية . ولعل من أروع الصور ، تلك المقارنة التى عقدها بين الأولاد الجزائريين وبين أولاد الأوربيين المستعمرين القاطنين فى الجزائر . قال :

[كان الأولاد الجزائريون يلعبون فى مجموعات صغيرة وهم دوماً على أهبة الفرار أمام رجال الشرطة الذين يطاردونهم فى كل مكان، قد ألبسوا أردية عتيقة ، بالية ، ذوات أكمام مشمرة عند المفصلين وفى أرجلهم أحذية رجالية . صفر الوجوه ، عيونهم سوداء ، ينظرون باستغراب إلى الناس والأشياء ، هم نشيطون لا يكفون عن التشاجر وملاحقة بعضهم بعضاً ، وبما أنهم مكرهون ومضطهدون من قبل المدنيين وجب عليهم الفرار فى كل لحظة يتبعهم غضب الناس . إنهم يمتهنون الشحاذة وفى بعض الأحيان النشل والسرقة ، ينظرون بعيون شاخصة ثابتة إلى الرجال والأولاد الأوربيين ، ينظرون إليهم بل يحملقون بانتباه متجمع بما يظهرهم أسن مما هم عليه فى الحقيقة ، ينظرون بصورة غريزية إلى ثياب الأوربيين الجديدة وأجسامهم النظيفة السليمة التى لم تعرف الجوع، تبدو عليهم مظاهر السعادة والشعور بالطمأنينة والأمن والهدوء ، فيهم صفات الأدب واللطف والتهذيب التى يبرزونها كثياب العيد والأطفال الأوربيون يخشون عادة أطفال العرب ، وإذا أرادت

أمهاتهم أن يخفنهم صرخن مهددات ، سأنادى العرفى » ! .

أما الفلاحات الجزائريات فى قرية بنى بو بلين ، فهن « ذوات بشرة سمراء ضاربة إلى الشقرة كالعسل أو الذهب ، ولكن هذا لا يدوم طويلا .... فسرعان ما تغدو أجسامهن كأجسام الحمالين ، تعلو أرجلهن التى تطأ الأرض شقوق عميقة ، يجرون أجساماً هزيلة تبرز منها الأضلاع .. هذا مع الجوع الهائل الذى يخالط نظراتهن » .

والرواية ذات هدف اجتماعى يكشف إحساس الفلاحين والعمال الزراعيين بحالتهم البائسة ، وبدء الوعى عندهم الذى أخذ يتبلور أول الأمر فى شكل تذمر وشعور غامض بالظلم ، هذا ويعمل على إيقاظ الفلاحين ، وإنارة الطريق أمامهم ، والتمهيد لحياة كريمة ومستقبل أفضل .

يعمل على خلق هـذا كله مكافحون ذوو تجارب ونضج وإيمان بطاقات وإمكانيات الشعب الجزائرى فى زحزحة المستعمرين عن مراكزهم. ففى الرواية تسيطر شخصيات حامد السراج الداعية الاشتراكى الذى يلاحقه المستعمرون ، والكوماندار وابن أيوب وغيرهم ، فهم الذين يدفعون أبناء الشعب إلى التمرد والمطالبة بحقوقهم المهدرة ، واسترداد ما اغتصب منهم ظلماً وجوراً ، ولكل من هذه الشخصيات

طريقته وأفكاره يبدو أنهم جميعاً يتلاقون فى بؤرة واحدة هى إيقاظ الروح الجزائرية .

ومن خلال هذه الشخصيات يتعرف القارئ على المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقومية التى خلفها الاستعمار ، فكل واحد من هؤلاء يحمل بين جنبيه المأساة الجزائرية فى شقيها المادى والمعنوى فالكوماندار — وهو لقبه الذى اكتسبه فى الجندية — حل محل اسمه الأصلى الذى نسيه الناس — شخصية محببة تفيض بالأمل والإخلاص ، والكوماندار رجل كسيح فقد ساقيه فى الحرب العالمية الأولى وقد ، لف ماتبق من ساقيه المبتورتين إلى الركبتين بخرق كثيفة حتى صارتا تشبهان فى سماكتهما عمودين رخاميين مبتورين . وهذا الرجل هو صاحب الحلم الغريب الذى قصه على الطفل عمر قائلا : « كان القمر يحرف الزبد من أعالى الفجوات التى تفغر أفواهها بين الهضاب ، حتى خيل للناس أن الوقت ليس بليل ، فقد كان الهواء والأرض يتألقان حتى صار من الممكن تمييز كل باقة من باقات الحشيش ، وكل مدرة من مدر الأرض ، فكأن الهواء والأرض والليل تتنفس ببطء ، وفجأة سمع وقع حوافر تضرب الأرض فيرن صداها فى القرية ، فانتصب الفلاحون مذعورين ، واقتربت الضجة أكثر فأكثر حتى غدت كأنها رعد ينتقل من أول القرية الى أقصاها ، وهرب النوم من عيون

الفلاحين ، ولحظ الذين جلسوا على أبواب أكواخهم تحت جدران المنصورة حصاناً أبيض لا سرج له ولا لجام ولا فارس يعلوه تهتز لبدته من شدة العدو .. واختفى الحصان العجيب فى الظلام ، وبعد دقائق عاد العدو من جديد يطرق الليل ، وظهر الحصان عند أسوار المنصورة وبعد أن طاف حول المدينة القديمة اختفى من جديد ، وكانت الأبراج العربية التى قاومت الخراب تلق بخيالاتها القوية فى الضياء الليلى ، ثم عاد الحصان يدور حول المدينة القديمة ، وعند مروره طأطأ الفلاحون رؤوسهم ، واعترى قلوبهم الإضطراب والكآبة ولكنهم لم يرتجفوا بل تذكروا أولادهم ونساءهم قائلين : أعد يا حصان الشعب فى الليل ، فى ساعات الخير والنكد ، فى ضوء الشمس والقمر » .

ويتابع الرجل قوله : ومنذ ذلك الحين يستيقظ هؤلاء الذين يحاولون الإفلات من مصيرهم ، أو الذين يترددون فى التفتيش عن أرضهم ، أو الذين يريدون أن يتحرروا أو يحرروا أرضهم . إن عشق الحرية قد ارتفع الى أدمغتهم ، فمن ذا الذى ينقذك أيتها الجزائر ، إن شعبك يمشى على الدروب سائلا عنك ! » .

وإذا استمعنا إلى مايقوله بقية أبطال الرواية أمثال حامد السراج الذى خلق فى القلوب والعقول فكرة الثورة والاتحاد ضد المستعمر ، وابن أيوب الذى صاح وهو قابض على حفنة من تراب أرض الجزائر :

« سيأتي يوم يحاسبنا فيه أولادنا حساباً عسيراً ، وسيهبون لصب اللعنات علينا ، إني أرى من خلال المستقبل أحفادي يكيلون اللعنات لجدهم ، إني أراهم يتقدمون نحوي صائحين : الله أكبر . الله أكبر » .

ويخاطب ابن أيوب أهل قريته فيقول : « ألسنا غرباء في بلادنا ، والله يا أصدقائي إني أكلكم كما أفكر ، إنهم يظنون إننا نحن الغرباء ، والغرباء هم أهل البلاد . لقد استولوا على كل شيء ويريدون أن يصبحوا أسياداً أيضاً ، وجعلوا من واجبهم الحقد علينا ، نعم إنهم يجيدون فن الزراعة ، ولكن هذا لا ينفي كون هذه الأرض ملكاً لنا ، أفلا تعتقدون أننا قد حشرنا في سجن وأخذوا برقابنا حتى استحال علينا التنفس » .

وفي كل يوم ينتزعون قطعة من لحمنا فيبقى مكانها جرح عميق تسيل منه دماؤنا . هم يصرعوننا رويداً رويداً ، يا جيراني موتوا وأنتم تعملون ، ولا تتركوا أرضكم ، ولا تهجروا شبراً منها لأنكم إن هجرتموها هجرتكم وستبقون أنتم وأولادكم أشقياء مدى الحياة » .

إن هذه الأقوال ومثلها كثير تشير إلى حنين الجزائريين إلى أرضهم المنهوبة وتمسكهم بها ووقوفهم ضد الأساليب التي أتبعها الاستعمار للاستيلاء على الأرض وطرد أصحابها منها ، وقد سرت هذه الأفكار في الريف ، فقام الفلاحون الذين يعملون في المزارع الفرنسية بإضراب

يجرد المستعمرون قواتهم لمطاردة المضربين وإرهابهم .

وفى سنة ١٩٥٦ امتدت يد محمد ديب إلى أيدى أحرار العالم تحمل لهم مجموعته القصصية ، فى المقهى ، وهذه المجموعة — سبع قصص — تنقلك إلى الجزائر ، البلد المناضل ، والكاتب لا يسهب فى وصف طبوغرافى متعمد فتضيق به ذرعا ، ولا يلح فى التفاصيل ، بل إن همه هو خلق الجو ، وعدته فى ذلك هى تنويع أبطاله بين رجال ونساء وصبية ، فقراء وموسرين ، وفرنسيس وعرب ، وتنويع الأمكنة بين المدن والقرى ، فاستطاع بلمحات ذكية . وبفضل تخصيص الأشياء بذكر أسماء أنواعها الجزائرية ، أن يحمل القارىء يشم من الجزائر رائحة أرضها وأشجارها ، ومقاهيها وسجونها وعطر حقولها ، وخبث زوايها ، وتسمع زقزقة عصافيرها ، ونبح كلابها ، ويقابل الفلاح والعامل المشتغل والمتعطل ، والشحاذ والمجاهد الثائر يموت شهيداً .

وتنقل هذه القصص الواقعية القارىء إلى عالم كالبحر المتلاطم يزخر بأشتات من العواطف الإنسانية المتباينة ، وقد استخلص من هذه الشتات فلسفة عامة ، بريئة فى إدعاء الحتمية .

إنه يخشى على الإنسان من الظلم ، لأن الظلم ماحق لأخوة البشر ،

تقف الإنسانية من الظالم موقف الأم من ابن عاق يبصق فى وجهها تنفض منه اليدين وتدعو له ، ليحمل وحده وزره ، قد يلق عقابا لا يمنعها عدله من أن تحزن عليه ، ولكن هذا الحزن منها يفوقه بكثير هلعها الشديد على ابنها المظلوم الذى يحيط عنقها بذراعيه . تمزقه ساق القلب بلا ذنب ، لا أنياب ولا مخالب ، حين تراه يتعفن أمام أعينها وتنقلب نفسه الحلوة من وقع الظلم إلى نفس ضارية .

ترى فى قصصه أمثلة من مظالم ترتكب بلا كسب ولا غنيمة ، بل تصدر عن نفوس متقيحة بشهوة الانتقام وحدها ولو من العزل الأبرياء .

وفى سنة ١٩٥٧ قدم محمد ديب رواية « النساجة » التى صور بها فئة عمال النسيج الجزائريين وقد ركز روايته فى ورشة يعمل بها عدد من العمال وجعل محور روايته الطفل عمر الذى تتفتح شخصيته على مظاهر الحياة الصعبة التى يحياها بنو قومه . ومعه أمه « عائنة » تلك الأرملة المسكينة التى قضت حياتها فى فاقة وصبر على الحرمان لتعيل أولادها ، وهى فى كل ذلك راضية . فهى مثال للأم الشجاعة المخلصة لدور الأمومة التى يكثر أمثالها فى الطبقات الشعبية وهى ذاتها التى أنطقها محمد ديب بمثل هذه العبارة : [لقد ولدنا على هذه الأرض

اللعينة كما تولد المخازى ، وتغذينا الحثالة ، وهجرنا كما يهجر المنبوذون ، حتى خبزنا فهو أسود سواد الليل الذى يحيط بنا] .

إن الشعب الجزائرى الذى قاسى الكثير من ألوان الحرمان والعسف والاضطهاد ، وانتصر على الاستعمار سيظل مثالا للتضحية والفداء ، ورمزاً للقدرة الإنسانية الهائلة التى تفوق كل تقدير .

ولا أدل على هذه الروح المتوثبة والطاقة الروحية الهائلة من ذلك الحوار الذى جرى بين عمر والعامل الثائر حمدوش والذى أودع فيه محمد ديب فلسفة الروح الجزائرية :

— ليس المراد أن تحتقر الناس ، فهم لا يريدون أن تشفق عليهم ، أنت تريد لهم الخير فى حين أنهم متعطشون للعدالة .

— ياله من استعداد سقيم ، هل تتصور سوء تأثير ذلك عليهم ، إنه لا يرفع عن كواهلهم ذرة من البؤس ، إن الشفقة لعمل سهل . .

— أنت تكره الناس !

— أريد أن يتعلموا ألا يطلبوا سوى سعادة واحدة .. الحرية .

— هناك سعادة العيش .. العيش ولا شيء سواه .

— إنك تهذى !

— مع أن الناس جميعاً يبغون هذه السعادة .

— ليس في هذا روح ، إن ما يلزمنا هو أن نتعلم من جديد كيف نشعر بأننا أحرار ، ثم إن التعطش للعيش ينبت بعدها من جديد .

— يجب أن نفتح أعيننا ونرى .

— إن العالم قاس .. إن جميع الذين ينزعون إلى أفكار سامية سمحة سيسحقون ، فلا عجب إذا رأينا الإعياء يستولى علينا قبل بدء المعركة .

— لا تنس أن إخواننا رزقوا نعمة التكيف مع الحالات كلها ، وأن شقاءهم لا يؤثر فيهم أبداً .

— لست أدرى إنهم في الواقع يخجلون ، فهم يكتمون شعورهم ويخفون آلامهم .

— كلا ! هذا غير صحيح ، إن قلوبهم ميتة .

— يجب أن توقظ هذه القلوب !

— إن ما يلزمنا هو أن نتعلم الحقد ، وأن نكون قساة القلوب .

— هنالك أناس يساعدون أمثالهم على أن يصبحوا أحسن حالا .

— ستكون واحداً منهم .

إن رواية محمد ديب التي تصور بعث روح الشعب الجزائري تغني عن مئات الكتب والمقالات التي كتبت عن الجزائر وقضية الجزائر .

وقدم محمد ديب بعد ذلك روايته « صيف فى أفريقية » .

إن محمد ديب صاحب عبارة دقيقة محددة لا يزوق أسلوبه بل يهتم اهتماما كبيراً باختيار أدق الألفاظ ويجرى على لسان شخصيات قصصه أبسط العبارات وأنفذها حتى تتسلل أحاديثهم إلى قلب القارىء فيحس بهم ويشاركهم آلامهم وآمالهم .

وتقطر قصصه إنسانية وحبا للبشرية ، إنه لا يمل الحديث فى صفحاتها المتوالية عن « نظراته » عن طيبة نفوسهم وصفاء قلوبهم ، وعن الخير الذى يكمن فى الإنسان ، متحدثا عن حياة الحرمان والظلم والظلام التى — كان — يعيشها أبناء الشعب العربى فى الجزائر .

شاعر وثورة

شاعر لم تتح له الظروف أن يحمل أكثر من الشهادة الابتدائية ، ولم يزد عمره الإنتاجي على ثلاث سنوات .. ومع ذلك نجح في أن يسجل اسمه في سجل شعراء الثورة ..

كان سياسياً وطنياً ثائراً في كل كلمة تلفظ بها ، وبيت شعر أنشده ، زج به في السجن بعد إتمام دراسته مباشرة ، وتآمرت عليه السلطات الفرنسية لاغتياله ولكنها فشلت ، بيد أن يد القدر لم تخطئه فاختاره الله لجواره وهو أوفر ما يكون صحة ، وأشد ما يكون إقبالا على الحياة وخوض غمارها . كان ذلك في « غرداية » مسقط رأسه في سنة ١٩٢٩ وعمره لا يزيد على ثلاث وعشرين سنة ..

إنه الشاعر رمضان حمود ..

ثار رمضان حمود على الرجعية ثورة عنيفة ، ونادى بالتجديد في كل مظاهر الحياة .. ولكننا نجد عند الشاعر الى جانب هذا العنف اعتدالا في الدعوة التي تبناها ، فهو لا يدعو الى فكرة هدامة تقضي على الدين من جذوره ، كما أنه لا يدعو الى تحرر سافر يترك الدين وراءه ، متعلقاً ببهرج الحضارة الغربية لاهثا وراء الناعقين من الدخلاء ، انه يحمل من النقمة على هؤلاء ما يحمله على أولئك فهم سواسية في الحاق

الضرر بالمجتمع والدين ، وهم شركاء فى المؤامرة الدنيئة وان كانوا على طرفى نقيض :

نسير وراء الناعقين تمالكا
لنحظى ببعض الشيء والشيء سافل
نرى قولهم حقاً وصدقاً وحجة
وإن جاء منهم ناقه فهو كامل
نقلدهم كالببغاء تفرنجاً
ولم نتبع ما قررته الأوائل
نقلدهم فى فسقهم ومجونهم
ولكن سدا بيننا والفضائل
وإنا فرادى فى المكارم والحجى
ولكننا فى الموبقات جحافل

ولم يكن تطلعه إلى مستقبل أفضل وعيش أحسن تنكراً الماضى المجيد ، فهو يقول فى كتابه « بذور الحياة » :

[إذا جهلت أمة تاريخها فقد جهلت مستقبلها وإذا جهلت مستقبلها فقد أسرت نفسها بيدها وألقتها فى يد غيرها » .

ويحذر من الدخيل الذى يدس أنفه فى تاريخ الشعب :

« التاريخ يحيي الأمم وقد يكون قاتلها إذا شربته من كأس غيرها » .

وقد دعا الشاعر الشعب إلى أن يسير للعلا والرقى لأنه موطن الأمجاد ، ويدعوه إلى أن يرفع رأسه عاليا ، ويهيب به أن يطالب بحقه المغتصب ، ويرسم له طريق الدعوة ، ويبين له أساليب العمل ، فهو لا يريد منه أن يطلب حقه بذل وهوان ، أو بالحرب والدمار ، بل بسلم وبعلم وذكاء :

موطن الأمجاد .. سيرا للعلا	عشت حرا يا مقر الفضلاء
ارفع الرأس وزاحم من علا	واترك الخوف لقلب الجبناء
وانشد الحق وطالب ما ترى	فيه خيرا لبنيك النبلاء
لا بذل وهوان وصغار	لا بحــرب ودمار ودهاء
بل بسلم وهدوء وهــدى	وبعــلم ونشاط وذكاء

إن الشعب الجزائرى لم يكن فى يوم ما من تجار الحروب ، بل كان دائما يطالب بحقه بالطرق السلمية ، ولم يعمد إلى الحروب ، إلا بعد أن استنفد كل الطرق .. وحيل بينه وبين حقه فى الحياة الحرة الكريمة .

ويستمر الشاعر يضرب الأمثلة ، ويوجه الأنظار إلى الغرب ..

الذى بنى القصور الفخمة ، واستولى على البحر والبر والهواء :

انظروا الغرب بعلم ما بنى من قصور شاهقات للعلاء
ملك الدنيا وما يتبعها من تراب ومياه وهواء

ورمضان حمود ثائر على الظلم :

أقول جهارا ولا أتقى ولو كان فى القول مر العتاب
دعونى فما المجد إلا المنى وخوض الجلائل عند الطلاب
فليست تنال العلا صدفة ولكنها بركوب الصعاب
دعونى أناضل عن أمة عليها توالت شرور الذئاب
فأمست تنوح على عزها وتبكى دموعا كوطف السحاب

تلك الأمة الشقية التى تجرعت الغصص ، وشربت كأس الألم حتى الثمالة ، هى التى أشعلت فى قلبه جذوة الثورة ، وأذكت شرارة الحماسة فى ضميره فأهاب به إلى الانتفاضة العارمة :

فها صوت الضمير يهز صدرى ويأمرنى بأشغال ثقال
فسمعاً يا ضميرى كن قريراً رضيت بحكمك العذب الزلال
فإنى لا أمل وسوف أسعى إلى رفع الستار عن المحال
أضحى ما أتيت وفوق جهدى إلى أن يبلغ الشعب المعالى

وقد عشق رمضان حمود ، الحرية ، فى صورة غادة حسناء وراح

يناجيها بلسان المحب المدله فى حبه فى رمزية مقنعة بعيدة عن الرقباء ، ثم انفجر به الشوق فأزاح القناع وعانق حريته سافرة ، وتغنى بها صراحة :

« ما أجملك أيتها الحرية وما أعظمك . جميلة لأنك نور الله ينير طريق الإنسان فى هذا العالم المظلم . وعظيمة لأن الأسباب الموصلة إليك لا تخلو من الدماء والأهوال التى تقشعر منها الجلود » .

« من يبكى لنكبة أصابت ماله وأولاده أكثر منه لفقدان حريته فليس بإنسان ولا حيوان ، وإنما حجر جامد » .

« لا تترعرع الحرية إلا فى عهد الاضطهاد والظلم » .

وتغنى الشاعر رمضان حمود بالوطنية شعراً ونثراً وحلق فى آفاق إنسانية منها واستمرأ العذاب فى سبيلها :

[كل ما ألقاه فى سبيل إحياء وطنى وبلوغ مقصدى لا يثبط همتى لأنى متيقن أن لا خطب أعظم من الموت ، والموت فى هذا السبيل أحلى من الشهد المقدس] .

« الغلو فى الوطنية محمود ولكن بشرط أن نحترم أفكار غيرنا وأن نقبل الحق من حيث أتى ومن أى فم خرج » .

وحلم بالجزائر الفتاة وتعشقها ، ورسم لها فى مخيلته صوراً جميلة

مشرقة ، وعاش يناجيها فى عالم الغيب ، راجياً أن يراها فى عالم الواقع:

[الجزائر قامت تنادى أبناءها وتلتمس منهم المعونة على الصعود إلى سماء الرقى والحياة ولكنهم — ويا للأسف — لا يزالون لاهين بالسفاسف من الأمور مشتغلين بما لا يغنى ولا يجدى نفعـــاً فهم لا يسيرون شبراً من الأرض إلا ويعدونه تقدماً باهراً معتبراً يستحق الالتفات] .

واعتز بتاريخ الجزائر اعتزازاً كبيراً ، ورجا مخلصاً أن يكون هذا الماضى المجيد باعثا على المستقبل الأفضل :

« إذا صح أن الأمم لا تتكون إلا من طينة تاريخها الغابر وأن الأمة التى لا تاريخ لهـا لا تنهض إلا باندماجها فى غيرها فإن للجزائر العزيزة تاريخا ماجداً وماضيا خطيراً يذكر بكل إجلال وتعظيم » .

ذاك هو رمضان حمود فى وطنيته الصادقة وثورته على الظـــلم ؛ والمعانق للجزائر الفتاة التى أذهلت العالم اليوم بالمعجزات بعد أن أنصفت نفسها فأنصفها الدهر .

ومن شعره :

نهوضا نهوضا بنى جلدتى ... إلام نعيش بطى الحصير ؟
إلام ؟ وفى الأسر أرواحنا ... ونحيا هوانا حياة البقر

أنمسى ونصبح فى حسرة — ونحسب ذاك الشقا للقدر ؟
أراكم تسرون بالتافهات — وشعبكم فى مهاوى الخطر
أرى الشرق يسعى إلى حتفه — إذا نبذ الدين ثم كفر

ويقول فى الحرية :

لا تلمنى فى حبها وهواها — لست أختار ماحييت سواها
هى عينى ومهجتى وضميرى — إن روحى وما إليه فداها
إن عمرى ضحية لأراها — كوكبا ساطعا ببرج علاها
فهنائى موكل برضاها — وشقائى مسلم لشقاها
إن قلبى فى عشقها لايبالى — تطوى الأرض أم يخر سماها
قد قضى الله أن تكون كصوت — وقضى أن يرد روحى صداها
إن فى العشق رحمة وعذابا — وعذاب العشيق ثوب جناها
لم أنل من حبيبى إلا صدودا — وصدود الحبيب ثار وراها
هجرتنى من غير ذنب ولكن — كل ذنبى فى كون قلبى اصطفاها
قيدتنى وخلفتنى أسيرا — فى يد الوجد محرقا بلظاها
فارقتنى بلا وداع وعاقت — من وداعى تعلق برداها
تركتنى ولم تراع هيامى — عذبت مهجتى بشحط نواها
هكذا سنة المحبة تقضى — بشقائى مادمت أبغى لقاها

إيه يادهر فارفقن بقلب   يحمل الخطب والهموم سواها
أيها الطائر المحلق فوق   هل أجد فيك حكمة واتقاها
أترى هل تكون مني رسولا   يحمل السر للحبيب وجاها
بلغنها مقالة من صديق   حين تأتى ديارها وتراها
ان ذاك الكئيب مازال خلا   يحفظ الود والعهود قضاها
أتمنى بأن أراها فأحلى   وصالا يكون فيه رضاها
كاد حبي لها يبدد جسمي   بسهام بين الضلوع رماها
قل لها ما شهدت مني جميعاً   فعساها ترثى لحالي عساها

كاتب ياســـين

من أدباء الطليعة فى الجزائر كاتب ياسين . .

ولد فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٦ فى إحدى مقاطعات قسنطينة ، من أصل قبلى ، ودرس فى مدينة سطيف ، ثم أوقف وسجن فى السادسة عشرة من عمره على أثر المظاهرات الدامية التى جرت فى ٨ مارس سنة ١٩٤٥ ، ثم أطلق سراحه بعد عدة شهور .

وفى حياة كاتب ياسين تواريخ هامة ، تشكل مراحل تكوينه العقلى وظروف حياته المعاشية والمادية .

فى سنة ١٩٤٦ أصدر مجموعة شعرية بالفرنسية أسماها « نجوى » تلقتها الأوساط الأدبية فى باريس باحتفال عظيم . وفى سنة ١٩٤٧ رحل إلى باريس ومكث فيها تسعة شهور ، وفى سنة ١٩٤٨ عاد إلى باريس مرة أخرى ونشر فى مجلة « مركوردى فرانس » قصيدة عنوانها « نجمة » وفى سنة ١٩٤٩ عين مراسلا لصحيفة الجزائر الجمهورية ، ثم سافر إلى العربية السعودية والسودان وأسيا الوسطى ونشر أثناء ذلك قصائد فى باريس والجزائر .

وفى سنة ١٩٥٠ مات والده فأصبح عائل أسرته ، وفى نفس السنة هجر كاتب ياسين مهنة الصحافة واشتغل حمالا فى ميناء الجزائر . وأعقب

ذلك فترة بطالة ، ثم رحل بعد ذلك إلى باريس للمرة الثالثة فاشتغل خادماً فى مزرعة فعاملا زراعياً ثم عاملا بناء ومساعداً كهربيا وغير ذلك من المهن المتواضعة .

وقد تمكن كاتب ياسين من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٥٤ أن يوقف وقته على العمل الأدبى ، فأتم روايتين هما : « الجثة المطوقة » وهى مأساة نشرت فى مجلة « اسپرى » سنة ١٩٥٥ ، و « نجمة » .

وتقع حوادث رواية « نجمة » فى جبل الناضور ، وهو جبل حصين فى أقصى الجانب الشرقى من عمالة قسنطينة ، سكانه قبيلة عربية عريقة فى النسب تسمى « كبلوت » . وكان كبلوت من اللاجئين الأندلسيين العرب الذين اضطهدهم الأسبان فطردوهم من ديارهم ، وكانت قبيلة كبلوت قد نشرت الحضارة الأندلسية الإسلامية حولها ، وجعلت من جبل الناضور مركزا للعلم والأدب ، إلى أن جاء الفرنسيون فاستولوا عليها فى سنة ١٨٧٠ بعد مقاومة عنيدة استشهد فيها سبعة من مشايخ جبل الناضور ، وأحد هؤلاء هو جد الكاتب « ياسين » .

وهنا تبدأ المأساة ، التى تصور كيف صار الكاتب صعلوكا وكيف أصبح يجيد اللغة الفرنسية ، فأصبح بعيداً عن العربية وعن أهله العرب يتيه فى شوارع باريس .

وقد صور كاتب ياسين قسنطينة فى موقعها الحصين على شواهق وادى الرمل .

وصورت الرواية المرأة ومستواها الثقافى ، والعمال الجزائريين وهم يرزحون تحت أثقال شحنات الاستعماريين فوق أرصفة الموانى ، وتحدث عن حياة الفلاحين البائسة ، والجزائريين المهاجرين إلى فرنسا لكسب القوت اليومى ، والطلبة الجزائريين فى فرنسا ، وتأثير فرنسا فى تكوينهم العقلى .

إن رواية « نجمة » هى قصة الشباب الجزائرى الذى يعيش فى بلاده عيشـــة المشردين إزاء المستعمر وأعوانه ، فكل أبطال القصة مشردون ومطاردون فى وطنهم .

يقول الدكتور ابراهيم الكيلانى فى كتابه « أدباء من الجزائر » : « وقد حفلت رواية « نجمة » — الى جانب الناحية الرمزية التى اقتضتها اصطلاحات الفن الروائى — بالصور الواقعية والملاحظات النفسية والصور الاجتماعية واللوحات التحليلية الموفقة التى تشهد للمؤلف بعمق نظرته للحياة وغنى تجاربه عن الأشياء والناس .

قال يصف سجون الجزائر حيث يلقى الموقوفون أنواع التعذيب : « تقدم الأخضر تحت وطأة ضربات الشرطة ، فصرح بهويته ونسبه وغير ذلك من المعلومات الشخصية .

وظل رجال الشرطة يضربون .

وظل الضابط يقرأ ورقته ..

— إذن السيد تلميذ ؟

فشهق الأخضر قائلا :

— نعم تلميذ !

فعلق الشرطي سوطه على زناره ، وتناول حبلا رطباً من على حافة حوض الماء ، وامتنع الشرطيان الآخران عن ركل الأخضر ، وأخفى هذا رأسه بين ذراعيه على محاذاة الأرض . لقد هيأ نفسه للتعذيب ، فهو لن ينكر اشتراكه بالمظاهرة ، ولن يبوح بكلمة عن المسدس الذى طمره فى الساقية ، وقد وطن نفسه — كوسيلة للنجاة — إذا اشتد عليه الألم على أن يبوح بأسماء طلاب من أنصار الفرنسيين الذين سيثبت التحقيق فيما بعد براءتهم .

لم يكن الأخضر يشعر بكل هذا إلا فى شكله العام المبهم ، فهو لم يعد يشعر برأسه ، وظلت بقية جسمه شبه سليمة ، وأخذ ألم بعيد وحاد يتوضع شيئا فشيئا فى خاصرتيه وركبتيه وقفص صدره وفكيه.

ثم تركهم الأخضر يعصبون يديه ورجليه ، ثم ثبت الشرطيان بين الحبلين دفة خشبية طويلة من شأنها تثبيت السجين ، ثم حمل وقذف

فى الحوض ، لقد خدشت كتفه اليسرى ، فوجد فى جموده عن الحركة وسيلة لإبقاء نصف جسمه غير مغمور بالماء فى شكل زاوية قائمة ، وكانت الدفة قد هصرت ذقنه ، وكان الأخضر فى انتفاضاته ليبرز رأسه يصل أحيانا إلى مستوى رجال الشرطة .

أغمض الأخضر عينيه .

فشعر بشيء بارد يضغط على شفتيه عرف عند المذاق أنهم وضعوا له حجراً كبيراً يصل حتى البلعوم ليمنعوه من إطباق فمه ، ثم وضعوا له شيئاً آخر استطاع أيضا تحديد ماهيته : قطعة من أنبوب معدنى يستعمل للسقى .

سالت المياه !

فلم يعد يستطيع الاحتمال .

لم يعد باستطاعته أن يشرب أكثر مما شرب .

وشعر كأن أعصابه جميعاً تتلوى ، وأن جرعة مثلجة تقلب له أحشاءه .

الماء يسيل .

وكان الضابط يزيد فى إسالة الماء تدريجيا .

وكان الأخضر يزداد انتفاضا .

— ياله من متوحش ، إنه يريد أن يقتل نفسه .
— هيا تكلم ، إنك شاب وسيطلق سراحك .
— من هم رؤساؤك ؟
— هيا يا (. . . .) هل تريد أن تغطس ؟
لقد عزم الأخضر على البوح ، وأشار بإيقاف سيلان الماء !
— رؤساؤنا ؟ ليس لنا رؤساء ، نعم ، نعم ، سأتكلم . انزعوا أولا الأنبوب ، إن رؤساءنا .
— إنه يسخر بنا ابن المومس ! !
وإنهالت عليه الضربات .
إن سوط الضابط لم تعد تكفي .
وتناول الشرطيون حبالا رطبة أخرى .
وإنهالوا على إخمص القدمين كأنهم حطابون فى غابة .
وكان الأخضر يسمع لهث الشرطيين .
وعرف لماذا استهدف الشرطيون إخمص القدمين .
فتن ركبته وغطس . . .
إن الرواية ترسم صورة واضحة القسمات لما كان يلقاه الشباب الوطنى على أيدى الاستعمار وأعوانه .
لقد كتبت الرواية بمهارة تامة . .
وكاتب ياسين . . كاتب ممتاز .

محمد العيـــد

كان الشعب الجزائرى فى الفترة ما بين سنة ١٩٣٠ — ١٩٤٥ يبحث عن ذاته ، ويتشد كيانه ، ويلم قواه التى بعثرتها الفرقة والخلافات الحزبية . فأخذ يدعو إلى مؤتمر عام يضم كافة الاتجاهات والهيئات لتوحد صفوفها ، وتعمل ـ إن كانت جادة مخلصة ـ لفائدة الوطن .

وعقد المؤتمر بالجزائر ـ العاصمة ـ سنة ١٩٣٦ ، وقد حمل هذا المؤتمر شعار المؤتمر الإسلامى الأول . وقد انبثق عن هذا المؤتمر نواب ذهبوا إلى فرنسا ليفاوضوها فى بعض المطالب السياسية . ووعدت فرنسا بالاستجابة إلى المطالب ، ووجدت من النواب من أثرت عليه لجرته إلى جانبها فوقف فى صف الاستعمار .

فرح الشعب بهذا المؤتمر ، وظنه بداية لحركة شاملة لتوحيد الجهود والطاقات من أجل العمل الجدى وسجل الشعر هذا الحدث . .

وألقى محمد العيد قصيدته فى المؤتمر أشاد فيها بالجهود البناءة ، لأن الشعب سيحطم السدود والقيود التى حالت بينه وبين حقه فى الحياة الحرة الكريمة :

أقيمى لا تفارقك السعود ... سلام الله أيتها الوفود
شهدت اليوم مؤتمرا عظيما ... أغر لمثله يجب الشهود

به تبنى الجزائر من جديد ... وتستوحى المآثر والجدود
ونبعث صوتنا الشعبى حرا ... به يدوى كما تدوى الرعود
ونقتحم السدود إلى حقوق ... حرمناها وإن علت السدود
بلغنا رشدنا يا كون فاشهد ... وأدركناه فاشهد يا وجود

ويوجه حديثه إلى العدو الذى يماطل تارة ، ويهدد تارة أخرى ، ويحاول بذلك أن يوقف عجلة التاريخ فيخاطبه الشاعر بهذه النغمة التى تدل على اليأس من هذه الوعود :

وجاءتنا الردود بألف بشرى ... فما أغنت بها عنا الردود
متى توفى الوعود ؟ فقد مللنا ... تساؤلنا متى توفى الوعود ؟

ويلتفت الشاعر إلى ابن الشعب الجزائرى ، فيطالبه بالعمل الجدى بعد أن نفد الصبر فإما نصر عزيز كريم ، وإما استشهاد فى سبيل الحرية والوطن . وطريق العمل واضح لا التواء فيه : الاقدام . والعلم . والعمل المثمر ، فبهذه الثلاثة يسود الإنسان فى هذه الحياة . أما الذى يريد أن يستبد ويطغى ، فسيمحقه هذا الشعب المناضل :

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض ... بلا مهل فقد طال القعود
وقل يا ابن البلاد لكل ناس ... تجلى الصبح وانتبه الرقود
نهض يا ابن الجزائر فى المنايا ... تظلك البنود أو اللحود

بإخلاص وإقدام وعــلم   يسود على البرية من يسود
بغى الباغى زداك نخاب سعياً   وللباغى الردى ولك الخلود

ولم تف فرنسا بالعهود التى قطعتها على نفسها ، فسخر « العيد » بوعود فرنسا الكاذبة :

ما للحقوق إلينا غير واصلة   وقد سمعنا بها من منذ أزمان ؟
هل عاقها البحر عذا فهى عاجزة   عن قطع مافيه من لجج وشطآن ؟
أم راقها البحر حسنا فهى سابحة   تلهو بما فيه من در ومرجان ؟
أم لحقت ببنات البحر فاحتجبت   عن كل قاص من الرائين أو دانى ؟

ويتهكم على النواب العملاء الذين لا يرفعون أيديهم فى وجه فرنسا بل يسيرون فى ركابها يقول :

أفدنى برأى فى النيابات هل حوت   أساود فى قاعاتها أم وسائدا
ومالك ترغى فى النيابة موعدا   فإن ضاق منها طأطأ الرأس هامدا
ألم يأتها أن المعابد حجرت   على الذاكرين العامرين المعابدا
وكم من مأو أو مكاتب عطلت   على أنها تهدى البنين المرشدا

ويوجه الشاعر حديثه للنواب الذين خانوا الشعب ، ومشوا فى ركاب المستعمر وأصبحوا أداته للتنكيل بأبناء وطنهم ، ونسوا أنهم كانوا قبل « النيابة » يعدون الشعب بالأمانى الجميلة :

فيا نائبا نابَ البلاد بحادث   وخلف شعبا قائما فيه قاعداً
على أي ظهر كنت سوطك منزلا   وفي أي نحر كنت سيفك غامدا
ومالك ترغي في النيابة موعدا   ألم تك من قبل النيابة واعدا
ويا مجلس النواب إنك قاطع   يدا كنت منها لو تبينت، ساعدا

والشاعر محمد العيد يؤمن بالعروبة ، ويؤمن بأن كفاح العرب واحد ، وأن المصير العربي واحد . وقد حركته أحداث فلسطين ، وأثارت كوامن الشجن في نفسه ، فراح يصب جام غضبه ونقمته على « بني التايمز » الذين خانوا العهود التي قطعوها على أنفسهم لعرب فلسطين، ووقفوا ينظرون إلى فلسطين كيف تذبح بيد عصابات صهيون دون أن يحركوا ساكنا ، بل كانوا يؤازرون اليهود على عرب فلسطين..

إن العربي الذي أهدرت كرامته ، ليس أمامه إلا طريق واحد لاسترداد أرضه ، والثأر لكرامته الجريحة . . والعربي لا يهاب الحرب ، فحرب البسوس ، وحرب الفجار ، تشهدان له بالشجاعة والبطولة ، والعربي لا يحارب إلا إذا ظلم ، وهو لا يرضى بالخسف ، ولا يستسلم القهر :

بني التاميز قد جرتم كثيراً   فهل لكم عن الجور ازدجار ؟
ألم يقلقكم حرم مباح   وشعب يستجير ولا يجار ؟

ونكبة أوجه بالكشف غر   لتل بجالها صنع العجار
كم احتجت لظلكم وضجت   ولكن فى قلوبكم الحجار
إذن فالحرب للعــرب دأب   وهل تخفى البسوس أو الفجار
شددتم قهره فغدا انفجارا   وعقبى شدة القهر انفجار

وعندما حدثت مأساة ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، تفجرت فى قلب الشاعر براكين الغضب على المستعمر ، إذ عندما قامت الحرب العالمية الثانية، وجد الشعب الجزائرى نفسه يخوضها رغم أنفه ، وانتصر الحلفاء ، وقامت مظاهرات فى الجزائر .. مظاهرات سلمية تعبر عن انتصار الحرية فى « العالم الحر » وترجو من وراء انتصار هذه الحرية أن تنال منها نصيبا يساوى التضحيات التى قدمتها الجزائر فى هذه الحرب .. ولكن الرد كان قاسيا عنيفا ، كان القتل الجماعى ، ففى يوم واحد قتل من أبناء الشعب الجزائرى ما يزيد على ٤٥ ألف نسمة ، منهم الشيوخ والأطفال والنساء ، حيث هدمت البيوت ، وأحرقت دواوين بأكملها ، وخاصة فى: خراطة ، وقالمة ، وسطيف . وامتلأت السجون والمعتقلات بالآلاف من أبناء الشعب ..

هذه المأساة الدامية حركت وجدان الشاعر محمد العيد ، فالجرح عميق ، غائر فى القلب ، ولم يجد له يداً تأسو جرحه ، والشاعر يائس

من الذين أحدثوا هذا الجرح العميق ، بل إنهم ما زالوا فى غيهم سادرين .

وقد سئم الشعب الشكوى إلى العدو ، وهل العدو يرحم أو يحس بالجرح ، إن الشعب لم يعد أمامه إلا أن يخوضها شعواء بالمرهفات والتروس :

أأكتم وجدى أو اهدىء إحساسى
وثامن ما بى جرحه ماله آس
وأرقب من أحدثوه ضمادة
وهم فى جماح لم يملوا الاسلاس
تمر الليالى وهو يدمى فلم تجد
له مرهما منهم سوى العنف والبأس
إذا ما رجونا برأه تزد أفقا
بأحداث سوء وقعها مؤلم قاس
فيا لجريح ظل ينكأ جرحه
ويؤذى بلا ذنب على أعين الناس
يضج ويستعدى بغير نتيجة
ويشكو بلا جدوى إلى غير حساس

سئمنا من الشكوى إلى غير راحم
وغير محق لا يدين بقسطاس
ولا خير فى عد المظالم وحدها
إذا لم تدن على مرهنات وأتراس

وأثناء الثورة التحريرية والشاعر محمد العيد فى إقامة جبرية ببيته فى « بسكرة » بعد خروجه من السجن ، أطل عليه الطائر « أبو بشير » فكانت هناك مناجاة بين « أسير وأبى بشير » فأشاح الشاعر بوجهه عن اليأس متطلعا إلى تباشير اليوم الموعود :

جزمت بقرب إطلاق الأسير   غداة سمعت صوت « أبى بشير »
وجئت أبثه نجواى سرا   ومن للحر بالصوت الجهير
أناجيــه بآمالى وحالى   وأستفتيه عن شعبى الكبير
كما ناجى الأمير « أبو فراس »   حمامتــه بشعر مستثير
أراك « أبا بشير » ضيف خير   وطائر رحمــة للمستخير
وكل سفارة لك فهى بشرى   فأهــلا بالسفارة والسفير
أرح قلبى بزقزقة الأمانى   ومتعنى بمنظــرك النضير
وأنبئنى عن الأمل المرجى   وحدثنى عن الحدث الخطير
فقال : لقد أتيتك من بعيد   فأصغ إلىّ وارو عن الخبير

كما أصغى سليمان قديما ... إلى أنباء هدهده الصغير
سيحمد شعبك العقبى قريبا ... ويحرز نصره بيد القدير
أتى استقلاله حتما ، فأبشر ... وبشر ما لقولك من نكير
ودع عنك التشاؤم فهو وهم ... وهم ، ليس يحمل بالبصير
فليس لأمة بالحق ثارت ... مصير ، غير تقرير المصير

* * *

وعندما وقف الاستعمار يؤيد الصهيونية ويقتطع لها جزءاً من جسم الأمة العربية ، ويغرسها « شوكة » فى حلق الشعب العربى قال محمد العيد :

إن الذى زعم العدالة شرعة ... أذى الأئمة فى رضى الاحبار
ولا هى المعومة فى وشائج نسلها ... وسطا على الاجوار بالاجوار
وأحل بالقانون جرما فادحا ... وأذل دين الله للدينار

* * *

قل لابن صهيون اغتررت فلا تجر ... إن ابن يعرب ناهض للثأر
أعرضت عن خطط السلام موليا ... فوقعت منها فى خطوط النار
لا تحسبن بأن صبحك طالع ... فالبدر ويحك خادع للسارى
سترى أمانيك التى شيدتها ... منهارة مع ركنك المنهار
القدس لابن القدس لا لمشرد ... متصهين ومهاجر غدار

مولود معمرى

. . . واحد من أدباء الطليعة فى الجزائر ، جمع بين الموهبة الأدبية والنضال الفكرى المستنير ، وقد أسهم فى بلورة الثورة وتقلها من نطاق التذمر الفردى والشكوى المبهمة إلى ميدان الثورة الجماعية المنظمة والنضال الشعبى . . كما عمد إلى إقامة الحدود التى تفصل بين القومية الفرنسية التى كانت تحاول احتواء الشعب الجزائرى وبين القومية الجزائرية ذات الخصائص والمقومات المادية والروحية .

ولد مولود معمرى فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٧ فى قرية تاوريت ميمون فى جبال البربر العليا ، وتلقى تعليمه فى المدارس الثانوية بالجزائر وباريس ، واشترك مع الجيش الفرنسى فى معارك ألمانيا وإيطاليا ، ثم ترك الجيش ، ودرس الأدب فى مدرسة « بن عكنون » فى الجزائر ..

وقد تحدث مولود معمرى عن تجربته الخاصة حيث كان يدرس التاريخ ويقرأ سير قيصر والاسكندر المقدونى وأخبار لويس الرابع عشر ، وكيف لقن الأدب الفرنسى وتمتع بشعر راسين وقصائد بودلير ..

بيد أن هذا الفكر كله لم يصل إلى أعماق قلبه ، فقد كان يحس أنه غريب عنه ، تلك الأحداث التى كنت أعجب بعظمتها ، وذلك الجمال

الشعرى ، كل ذلك كان من استقباط وابتكار أشخاص غيرى ، ومجتمع إنسانى غير مجتمعى ، وبيئة بشرية لا يحيا فيها أحد من أبناء قومى » .

ومن هنا بدأ يفكر فى إنشاء أدب عربى مغربى باللغة الفرنسية ، يقول :

— كنت أتألم لكونى أحيا فى بيئة لا صوت لها يعبر عما يختلج فى نفسها من أفكار وعواطف خاصة بها دون سواها .

غير أنه واجه مشكلة التعبير عن مشاعره باللغة الفرنسية ، يقول :

— تلقيت دروساً باللغة الفرنسية ، وأنا أتوق إلى أتقانها واكتساب ملكتها ، حتى أتمكن من التصرف فيها بدقة وأناقة وكان لابد من عقبات ومصاعب لعدم وجود انسجام بين هذه اللغة وطريقتى الخاصة فى التفكير والتعبير ، وكان لابد لى إذن أن أقسو على إحداهما لأجعلها طبعه أخرى للأخرى [١] .

ومن إنتاج معمرى الأدبى رواية « نوم الرجل العادى » ورواية « التل المنسى » وهى من أروع ما كتبه كتاب الجزائر ذو التعبير باللغة الفرنسية ، فهى تترك أثراً عميقاً فى نفس القارىء بما تتضمنه من صور عن قبائل البربر والوسط الذى تعيش فيه ، وتقع حوادث الرواية فى

(١) أنور الجندى : الفكر والثقافة فى شمال أفريقيا ص ٢٢٨ .

إحدى قراها الجبلية « تاسكا » ، إذ كان يعيش فى القرية قبل الحرب العالمية الثانية مجموعة من الجزائريين عيشة العزلة والانقطاع عن العالم الخارجى ، حتى إذا اندلعت نيران الحرب كشفتهم لأنفسهم وفرقتهم ، وتظهر من خلال الإطار الروائى الناطق مظاهر هذا المجتمع البربرى المعذب الذى حرم من نعم الحضارة والحياة الكريمة ، وسيطرت عليه الأوهام والخرافات ، كما تبدو فى الرواية مظاهر الحرب فى شمال أفريقية من سنة ١٩٤٢ الى سنة ١٩٤٤ ، وما جرته على الجزائر من بؤس وعذاب ونقص فى الرجال .

وفى رواية « التل المنسى » لوحات أبدع « معمرى » صنعها تجمع بين أبداع الفن التصويرى والوثيقة الاجتماعية ، مما يجعل منها صورة تمثل أروع تصوير حياة القبائل الجزائرية .

علي بن عمر

كاتب فذ . .

شارك بقلمه فى فتح نوافذ المعرفة والثقافة على صفحات جريدة « المبشر » .

ترجم[1] كتابا عن تاريخ النباتات فى أفريقية لمؤلفه « Mans » نقلا عن المجلة الجزائرية « Revue Algerienne » ونشره فى سلسلة من المقالات بعنوان « تاريخ أفريقية فيما يتعلق بالنباتات » .

ومن قراءة هذه الحلقات يظهر لنا أن علي بن عمر كان يختار الفصول التى تجد صدى وطنياً فى نفسه فهو مثلا يأخذ من فصول هذا الكتاب تلك التى تؤكد خصوبة أفريقية فى العصور القديمة عصور ما قبل التاريخ وبعده .

يقول : [اعلم أن أرض أفريقية فى سالف الدهر كانت مشهورة بالنضارة والطراوة لكثرة نتائجها الفلاحية واستمرت زاهرة بين تلك القرون إلى آخر دولة اليونانيين فيها حتى كان يضرب المثل بخصبها ولم يوجد لها نظير فى تلك الأعصر والذى أظهرها من بين سائر الأقاليم وغلبت فى شهرتها هو الزروع من قمح وشعير .

---

(١) نشأة الصحافة فى الجزائر للأستاذ الزبير سيف الإسلام – مجلة الجيش الجزائرية العدد ٦٥ سنة ١٩٦٦ .

فاتفق جميع المؤرخين القدماء على مدح الأرض الأفريقية ، فلو جمع ما وصفوها به لاستغرب ما أطنبوه فى امتداحهم إياها .

وقيل إن أول من زرع البر فيها هم أهل صور « سور الغزلان » لكى لا تتعرض فى ذلك لمن سبق باستعماله البر فى هذا البلد الكريم] .

وبعد هـــذا المدخل يصف ويستشهد بأقوال بعض العلماء ، فى الجغرافية والتاريخ فيذكر أحد علماء الفرس كان عالماً جغرافياً فى عهد الملك الفارسى « دارا » وكيف وصف هذا العالم الأقطار الموجودة قرب مصر وهى : طرابلس وتونس والجزائر ..

ويخلص إلى القول : ثم جاء بعده هيرودوت الملقب بأبى التاريخ فخص بمدحه بقعة من بقاع أفريقية قائلا : إن ترابها مكحول تتخلله المياه بسواق كثيرة . وسمى البرار الداخلية فى جوف أفريقية أرض الفلاحين . وقال أرسطوطاليس الحكيم إن القرطاجنيين نهوا أهل سردانية من الزراعة فى أراضيهم وإلا قاتلوهم .

وقال آخر : إن البر الذى زرع فى بلاد اليونانيين كان جلبه من البلاد الأفريقية ولما عرف الروم قـــدر تلك الحبوب استحسنوها وشيدوا هيكلا عظيما « لها » فرحا بحصول هذه البركة فى أرضهم وتذكاراً لمن يأتى بعدهم .

ولا يقف على بن عمر عند هذا الحد فى ذكر ماضى بلاده فقط بل يذهب الى ملوك الروم وما كانوا يأخذون من حبوب فى كل سنة من كل مدينة وناحية فيذكر الحرب التى وقعت بين ملك الروم وملك الشام وكيف قدمت أفريقية الزاد اللازم ، ويذكر قيصر عندما غزا أفريقية التى أتى اليها بلا زاد لكونه يعلم بأن الخير فيها موجود .

وأن ملوك « قسنطينة » كانوا يقدمون الهدايا لأهل صقلية من حبوب البر والشعير القسنطيني . ثم يقول : « إن أحد ولاة قيصر بعث إليه بجرزة من سنبل على ساق واحد تحتوى على ٤٠٠ سنبلة كلها نبتت من برة واحدة وبعث والى آخر لولى عهد قيصر بجرزة أخرى فيها ٣٦٠ سنبلة .

ولقد شهدنا فى زمننا هذا ـ سنة ١٨٤٩ ـ جرزة قائمة على ساق واحد فيها ١٨٠ سنبلة وقد أرسلت الى باريس ووضعت فى محل العرض العمومى . ثم ان مرادنا بذكر هذه الفضائل لم يكن منا اظهاراً لأراضيها الكريمة على أنها فى عادتها تنتج ما ذكر وإنما أتينا به تصحيحاً وبرهاناً لخصبها وجودها » .

لقد كانت ترجمته أو أسلوبه فى الترجمة سليما . . ولقد كان يأخذ حرية أكثر فى التصرف بالزيادة والنقصان وعدم الحفاظ على النص ،

كان يتصرف فى الكلمات مع الحفاظ على المعنى والجوهر كما كان يضيف أشياء كثيرة من عنده .

أما أسلوبه فى الكتابة فقد كان أسلوبا جميلا فى وقت كان فن الكتابة يطغى عليه التزويق والتملق .. والخروج عن الموضوع تماما، فى كثير من الأحيان . وقد عالج القضايا الاجتماعية بأسلوب قصصى دون أن يذكر الأسماء ولا الأماكن التى وقعت فيها الأحداث ، مثلا يروى قصة حصان سرق من صاحبه وبعد أن فقد الأمل فى العثور عليه ذهب الى السوق ليشترى غيره فإذا به يجده بين الخيول ... ولما خاف من أن لا يصدقه الناس بأن الحصان حصانه استعمل حيلة ليثبت بها صدقه ونادى فى الناس بأن الحصان سرق منه منذ أيام فبادره السارق قائلا : « كذبت إن الحصان حصانى منذ سنة » فعند ذلك رمى صاحب الجواد جناح برنوسه على رأس الحصان وقال له « ان كنت صادقا فى دعواك ملكيته فلا يخفى عليك شىء من عيوبه فعرفنى الآن من أى عين هو أعور » ، فلما سمع السارق مقالته بهت وتغير لونه الا أنه التزم برد الجواب حينا ، فقال بالتخمين : أتريد أن تجهلنى فى حصانى انه أعور من اليسرى . فقال الآخر : ويحك أخطأت ليس العيب فى اليسرى . فقال السارق : نعم .. نعم . سبقنى لسانى وكان قصدى أن أقول فى اليمنى بل هو فى اليمنى .

فكشف هذا الطبيب عن رأس الجواد قائلا :

ــ « قبحك الله يا خداع فما أنت الا كاذب وسارق . أيها الحاضرون انظروا الى حصانى الذى لا هو أعور من اليسرى ولامن اليمنى .. »

فقبض على السارق واحيل الى العدالة .

انه أسلوب رقيق حلو مسترسل .. يشد اليه القارىء .

وقد ترجم على بن عمر عدة كتب مثل احتكاك الأوربيين بالعرب فى أفريقية . وترجم عدة مقالات لم يذكر صاحب الكتاب المترجمة عنه علاقات البابوات مع المسلمين فى شمال أفريقية وكانت بعنوان « مخالطة البابوات مع عرب أفريقية فى الأجيال المتوسطة » .

وكتب مقالا عن « التجارة الجزائرية » قال فيه :

[فإذا نظرنا الى البضائع التى وردت لولاية الجزائر فى ظرف الثلاثة أشهر الأولى لسنة ١٨٤٩ من بر فرنسا وغيرها وجدناه فى حال يرضى الخاطر لوجود التزايد من جانب ابراز البرور المستعمرة مصنوعات فرنسا والنقصان من جانب الحبوب فهذا مما ينبىء على أن ولاية الجزائر صارت اليوم غير محتاجة الى المحصولات الأوربية وأنها اكتفت بما فى باطنها من النتائج للانتعاش بها] .

ثم يذهب إلى بيان التفصيلات عن المواد التي تدخل والتي وقع النقص في استيرادها ويورد أرقاما للسمك المملح الذي صدرته الجزائر إلى إيطاليا وأسبانيا التي بقيت في أمس الحاجة الى الجزائر لتزودها بهذه المواد . فيتحدث عن القطن والسمك والدقيق والدخان والحلفة ويقارن نتائج السنة بنتائج السنة التي سبقتها ويذكر النقص مثل الجلود والصوف .

ويختم مقاله قائلا : « أما النقص الذي لحق الشمع والشعير والكتان والقطن ومعدن النحاس فلا عبرة به » .

ان قلم علي بن عمر كان سيالا وصاحبه مقتدرا بحيث كان يكتب في كل شيء : في الاقتصاد والسياسة ، والقانون ، والفلك . .

وفي مقال طويل بعنوان « الشمس ثابتة » كتب يلخص عن كتاب .. استقرار الشمس ودوران الكواكب وكروية الأرض ، فبعد أن يشرح اعتقاد البشر منذ القدم بأن الأرض هي محور النجوم والشمس وأن كل الكواكب تدور حولها وهي ثابتة (أي الارض) وكان هذا يبدو طبيعياً بالنسبة لهم حيث يرون الشمس كل يوم تعلو من مشرق الأرض وتغيب في غربها ويشاهدون النجوم ليلا تسير كذلك من المشرق الى المغرب ، بعد هذا يقدم الأرقام ليثبت بها حجم

الأرض وحجم الشمس وبعد الشمس عن الأرض فيقول : «ان جرم الشمس ، أكبر من الأرض بمليون وأربعمائة مرة وبعدها عن الأرض بمائة وثلاثة وخمسين كيلو مترا ، ويقدم التقديرات للمسافة التى تقطعها فى اليوم الواحد لو كانت الشمس هى التى تدور حول الأرض .

ثم يدحض هذا الاعتقاد السائد منذ الأزل ويقول بأن الشمس هى الثابتة والكواكب تدور حولها .

ويقدم البرهان براكب السفينة أو العربة إذ يشاهد الأشجار والصخور تسير الى الوراء على الشواطىء أو على حافة الطريق وكأنه هو والسفينة أو العربة التى يركبها جالسة لا تتحرك ومع ذلك فلا أحد يشك فى تحرك السفينة أو العربة وأن الطبيعة جامدة ساكنة بأشجارها وصخورها .

وهكذا تبدو لنا نحن ساكنى الكرة الأرضية بأننا قارين فوق سفينة الأرض وأن الشمس هى التى تدور حولنا .

ثم يستغرب من هذه الأمور التى تحير العقول فيقول :

[أفليس اعتبار هذا السير مما يحير العقل ويرهب النفس؟ ثم يستعمل الإقناع الدينى فى قبول هذه النظرية التى تثبت عظمة الإله العلى القدير فيقول :

فلما كان الأمر هكذا ووجدنا طريقة هينة توصلنا الى إدراك حقائق العجائب التى تظهر لنا .

ألم يكن الواجب علينا أن نتمسك بها (أى الحقائق) ونستوثق منها لا سيما اذا كانت هذه السهولة دليلا على عظمة الرب جل وعلا ؟

أو ليس العظيم هو فى نفسه (الإله) الذى نتجت منه هذه الأمور الجليلة ؟

بعد هذه الشروح يقول عن الأرض واصفاً مكانها :

[واعلم أن الأرض هى على شكل كرة تدور على نفسها أمام شمس ونجوم ثوابت دوراناً من المغرب الى المشرق فيستبان منه أن النجوم متحركة من المشرق الى المغرب كما تظهر الأشجار والصخور سائرة بعكس سير المركب وذلك الدور يتم فى كل ٢٤ ساعة وهو سبب تكوين الأيام والليالى .

ومن غير الدورات المتصفة بها الأرض فلها حركة أخرى وهى انتقالها دائرة على الشمس وهذا الانتقال تستكمله الأرض فى مدة سنة .

وبما هو عليه من السرعة فلا نحس به كما لا نشعر بدورانها على نفسها . والحالة أن هذا الإسراع لا يمكن تمثله بما عندنا لأن كرة الأرض تقطع فى مدة ستمائة وثمانية عشر مليون كيلو متر التى ذكرنا

أن الشمس تسيرها فى اربع وعشرين سنة لو كانت هى التى تدور فى الحقيقة.

وبتجزئة ١٨,٠٠٠,٠٠٠ كيلو متراً على أيام السنة التى هى ٣٦٥ يوما تعين لنا أن الأرض تسير بنحو ١٦٠٠ كيلو متراً فى كل دقيقة وحينئذ ان ماظنناه من كوننا غير متحركين فهو غرور بل نحن فى الحقيقة فى حركة سريعة لا قدرة لنا على تحملها لو كنا نحس بها .

واعلم أن انتقال الأرض دائرة على الشمس هو السبب فى ايجاد الفصول واختلاف الليل والنهار .

وفى مقال آخر يستعرض حركة النجوم ويقدم مسافات أبعادها بالكيلومترات ثم يصف سيرانها وأبعادها عن الشمس فيقول : (ان الأجرام المذكورة كلها من نجوم سيارة وثوابت وتوابع . وذوى الذنب مرتبطة مع بعضها بغاية الإحكام والتوافق فإنها مطاوعة لقوة تجذبها دائرة على الشمس .

والمظنون أن سائر النجوم الثابتة كل واحد منها شمس تدور حولها سيارة متفاوتة العدد .

وقد انتهى عدد النجوم المرئية لنا الى مايزيد على ٧٥ مليونا ولاشك أن هذا العدد البليغ هو قليل بالنسبة لما احتجب عنا بغيم البعد فما العالم اذا كانت كل نجمة ثابتة شمساً ؟

وأعجز العقل عن إدراك جميع ذلك ولكن مداومة التفكير في هذه العظائم هي التي أدخلت في قلوبنا استعظام الرب الجليل الذي أوجد كل شيء بكثرة ورتبه ترتيبا وأتمه تحكيما » .

* * *

إن علي بن عمر لم يمدح الفرنسيين يوما ولم يمجدهم في كتابات ، وكان نشاطه الصحفي مقتصرا على خدمة المعرفة أو الأخبار البحتة فلم يخدم قلمه قط الوجود الفرنسي في الجزائر ، وحتى ما كان يترجم من الموضوعات كانت تخدم الجزائر بذكر ماضيها المجيد [1] .

---

(١) من بحث « نشأة الصحافة في الجزائر » اعداد الزبير سيف الاسلام – مجلة الجيش الجزائرية عدد ٦٠ – أغسطس ١٩٦٩ .

مالك بن نبي

ولد مالك بن نبي فى مدينة قسنطينة سنة ١٩٠٥ ، فى بيئة متدينة ، درس القضاء فى المعهد الإسلامى المختلط ، ثم توجه إلى دراسة عصرية وألتحق بالمعهد العالى للهندسة فى باريس ، حيث تخرج مهندساً فى الميكانيكا الكهربائية .

يقول عبد الرحمن الطهمازى (١) : إنه فوجىء بعد تخرجه بشىء لم يكن يتوقعه ، فوجىء بالأبواب أمامه مقفلة ، إنه لم يستطع القيام بالتمرينات اللازمة لكل مهندس تخرج حديثا ، لأن الاستعمار الفرنسى أدرك العقلية التى يحملها ، مالك ، الذى لم يكف عن الاتصال بأحداث العالم العربى والتجاوب معها .

وقد سلخ مالك بن نبي من حياته أكثر من ثلاثين سنة عاشها فى أوربا ، وكانت هذه السنوات الطويلة والخصبة بالنسبة إلى رجل مثقف عميق الثقافة سبباً فى إظهار ذاتيته ، وإيقاظ الشعور فى نفسه وفكره إنه عربى مسلم ، ليس هو من المجتمع الأوربى الذى عاش فيه بجسمه فى شىء ، وكان تعمقه فى الثقافة الأوربية سبباً فى تحرره من نفوذها وسيطرتها ، وخاصة أنه جمع إلى جانب الثقافة العلمية ، ثقافة فلسفية

---

(١) مجلة المكتبة (كانون ثان ١٩٦٣) نقلا عن الفكر والثقافة فى شمال إفريقية ص٦٧

وإجتماعية واسعة الأرجاء ، عميقة الأغوار ، كما تدل عليه آثاره ومؤلفاته العديدة .

وثقافة مالك بن نبي ليست ثقافة فكرية قاصرة على ميدان الفكر فحسب ، ولكنها نضجت بحرارة المأساة الهائلة التي كانت تعيش فيها الجزائر ، مأساة الاستعمار والظلم والإرهاب والسلب ، واستخدام أسمى النظريات العلمية لأحط الغايات وأخس الأهداف ، لقد تجمعت في قلبه ونفسه ، في عاطفته وشعوره ، في عقله وتفكيره ، مآسي أولئك الملايين من البشر الذين يعيشون على أرض الجزائر ضحايا لمدنية القرن العشرين !

وعاش مالك في صراع مرير مع قوى الاستعمار ونشر أول مؤلفاته في سنة ١٩٤٨ في الجزائر ، وهو « مشكلة النهضة الجزائرية » . واتجه مالك إلى المشرق العربي فزار مكة المكرمة ، وأقام في القاهرة وبدأ فيها عمله الضخم خلال سبع سنوات (١٩٥٧ — ١٩٦٣) حيث أصدر عدداً كبيراً من مؤلفاته تحت عنوان « مشكلات الحضارة » وأهمها :

شروط النهضة ، فكرة الإفريقية الآسيوية ، الظاهرة القرآنية ، وجهة العالم الإسلامي ، مشكلة الثقافة ، الصراع الفكري في البلاد

المستعمرة ، تأملات فى المجتمع العربى ، فى مهب المعركة ، ميلاد مجتمع ... الخ .

ويرى « عبد السلام الهراس »[1] أن فلسفة مالك تقوم على النظر فى التاريخ الإنسانى الطويل ، والتعمق فى أحداثها وأسبابها واستنباط الحقائق الإجتماعية التى نستطيع أن نفيد منها فى معالجة أزمتنا الحاضرة على ضوء ما أصابنا فى الماضى من فشل أو نجاح .

وتتلخص آراء مالك بن نبى فيما يلى :

إن الإنسانية مرت بأكبر تجربتين حضاريتين فى التاريخ : التجربة الرومانية ، والتجربة الإسلامية ، وقد كانت التجربة الأولى متجلية فى الروح الإمبراطورية التى يقسم الانسان إلى مواطن يتمتع بكامل الحقوق ، وإلى غير مواطن مسلوب من كل الحقوق ، وعلى هذا الأساس حكمت وقننت وعالجت ومنحت ، وهى وإن أخفقت معالجة مشكلات الإنسان قديماً ، فقد أتيح لها أن تبدو فى صورة جديدة فى عصرنا الحاضر .

فالحضارة الغربية المعاصرة تخطت الحضارة الإسلامية التى سبقتها

---

(١) مجلة دعوة الحق ، نوفمبر ١٩٥٨ ، وفبراير ١٩٥٩ ، نوفمبر ١٩٥٩ ، من الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقية للأستاذ أنور الجندى .

فى الزمن ، وكانت حلقة ضرورية فى سلسلة الحضارات الإنسانية ، تخطتها لتتصل بالحضارة الرومانية ، وتأخذ منها روحها الاستعمارية ، وتتشرب مبادئها ، وكثيراً من نظراتها الجوهرية .

يرى أن العالم الإسلامى ليس مريضاً بالتفرقة والجهل والإستعمار. وإنما هى أعراض « مرض » فقط . أما المرض الحقيق فيجب أن يلتمس وراء هذه الأعراض الخداعة التى شغلت العالم الإسلامى وأتعبته وضللته عن معرفة حقيقة الداء ، ومن ثم جهل حقيقة الدواء ، والمرض يكمن فى « النفس » فى الذات الإسلامية ، ويطلق « القابلية للاستعمار » ، وهذه القابلية هى الجاذبية التى تجذب نحوها الاستعمار ، فالقضاء على الإستعمار يجب أولا القضاء على سببه الجوهرى الذى يكمن فى النفوس أى « القابلية للإستعمار » .

ويعرف مالك بن نبى الحضارة بأنها تساوى (إنسان + تراب + وقت) فكل نتاج حضارى هو نتيجة إشتراك ثلاثة عوامل لا غير .

١ — التراب : المادة المكونة لهذا النتاج الحضارى .

٢ — الإنسان : الذى صنعه .

٣ — الوقت : الذى صنع فيه . وليس هناك عنصر آخر يستطيع أن يدخل فى تكوين وصنع هذا النتاج الحضارى .

إن مجرد وجود هذه العناصر الثلاثة ليس بكاف لإيجاد حضارة ، وإلا لكان مجرد وجود أكسجين وأدروجين بنسبة معينة كافياً لتكوين الماء ، إنه لا بد من مركب لهذين العنصرين كالشرارة الكهربائية ، وكذلك الحضارة فإنها تحتاج لمركب ، يركب بين عناصرها ، وهذا المركب أو الشرارة يجب ألا نختلقها اختلاقا ، بل اننا لا نستطيع إيجادها ، وإنما يبحث عنها فى التاريخ ، فهو الوحيد الذى يسعفنا بالخبر عن الشرارة المكونة للحضارات ، والتى استطاعت أن توجد العلاقة بين العناصر الثلاثة ، وعن تلك العلاقة انبثقت المدنية ، إهذه الشرارة هى الدين . فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية . وينبغى أن نبحث فى كل حضارة من الحضارات عن أصلها الدينى الذى بعثها .

وأن للحضارة مداراً تسير فيه ، هـــذا المدار يتكون من ثلاث مراحل :

١ ــ مرحلة الروح ، وذلك عندما تكون الحضارة فى عنفوان قوتهـا .

٢ ــ مرحلة العقل ، عندما تبلغ الحضارة أقصى توسعها .

٣ ــ مرحلة الغريزة ، التى تعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائيـة .

فالحضارة الإسلامية مرت بهذه المراحل ، ابتدأت المرحلة الأولى من قوله تعالى « اقرأ » الى حرب صفين ، ومن هنا دخلت فى مرحلة العقل الى زمن ابن خلدون ، وهنا استسلم العالم الإسلامى لقيادة الغريزة التى لا تزال لها القيادة إلى اليوم .

إن أوربا قد بدأت تدخل مرحلة الغريزة على الرغم من هذه الصحوة العلمية الجبارة التى انفصلت عن الضمير ، ومحاولة تقليدنا لأوربا فى هذه المرحلة التطورية من حياتها محاولة تدل على جهل بأسس المدنية وحقيقتها وبواعثها ، فالمدنية ليست بضاعة تشترى ولا أشياء تنقل أو صوراً تحاكى ، وإنما هى معان نفسية روحية تنبثق من الذات ، من الروح ، من الفطرة .

* * *

ولسنا نستطيع هنا أن نستقصى فلسفة مالك بن نبى ولا نحيط أفكاره ، ولا أن نعرض كتبه جميعاً ، إنما نحاول أن نعطى صورة سريعة لفكر هذا الفيلسوف العربى الإسلامى .. ولذلك نكتفى بعرض أحد كتبه وهو « وجهة العالم الإسلامى » .

والقارىء حين يقرأ هذا الكتاب يشعر أنه لا يقرأ كتاباً ، ولكنه يعيش مأساة أمة ، ويعيش معها خلال عشرة قرون أو أكثر .

ومسرح هذه المأساة الرهيبة هو العالم الإسلامي بمجموعه ، لا يخص المؤلف فيه بلداً دون بلد ، بل يبحث مشكلاته المشتركة ، يستعرض تاريخها منذ ظهور الإسلام، والمراحل التي مرت بها ، ثم يقف بالقارىء طويلا في العقدة الأساسية في المرحلة الحاضرة من مراحل الانسانية، ويوسع حينئذ مسرح المأساة لتبدو في صورتها العالمية : في جانبها الأوربي الأمريكي ، وفي جانبها الاسلامي ، ويظهر من بعيد وجهها الهندوكي البوذي ، كل ذلك ليرسم طريق الخلاص ، ويدل على المخرج بنور يسلطه على المجتمع الاسلامي ، وعلى هذه المنطقة الواسعة الأرجاء التي تمتد من المغرب الأقصى الى أندونيسيا .

وطريقة مالك بن نبي تقوم على تحليل عميق - أعانه عليه ثقافة عميقة وإطلاع غزير - لمراحل التاريخ إلى ثلاث مراحل :

أولها : مرحلة الإسلام الأولى في دفعته الإيمانية القوية الحية ، وهي أعظم هذه المراحل في حيويتها وقوتها الدافعة وخصبها ، وتنتهي في معركة صفين .

وثانيتهما : مرحلة المدنية الإســـلامية ، وهي مرحلة التفكير والازدهار الحضاري ، وتنتهي بسقوط دولة الموحدين .

وثالثتها : مرحلة الجمود والتأخر .

ويصف كل مرحلة من هذه المراحل وصفاً دقيقاً عميقاً ، ويخص

المرحلة الأخيرة بالعناية الفائقة لأنها تعيش فى رواسبها وآثارها، ولأنها تمثل فى رأيه السديد مرحلة القابلية للاستعمار.

وهو إذ يصل بتحليله التاريخى إلى هذه النقطة يلتفت إلى العالم الأوربى فيستعرض نشأة حضارته وصفاتها الجوهرية التى ترجع إلى عهد بعيد، ويعود بصفاتها إلى بيئتها الزراعية التى نبعت منها وانبثقت عنها، ويمضى معها فى تطورها حتى يصل إلى العصر الحاضر، يذكر فى خلال ذلك حسناتها وعيوبها والعناصر المختلفة التى تضافرت لتكوينها: من مادية منظمة تولدت من زراعة الأرض، إلى روحية غذتها من خارجها وهى المسيحية القادمة من الشرق، التى انكمشت واصطبغت بصبغة الحضارة المحلية، إلى العقلية الديكارتية التى أثرت فى التفكير الحديث تأثيراً عميقاً، إلى الصناعة الكبرى وما آلت إليه من ثورة فى القيم والمفاهيم، وأنظمة الحكم والأخلاق. ثم يقابل مالك بن نبى هنا بين الحلقتين الأخيرتين المتقابلتين من سلسلتى التطور فى أوربا والبلاد الإسلامية ويصف ما يكون من التقاء عالمين أحدهما حطت فيه المدنية رحالها، واتسمت بصفاته، وانتهت إلى عهد الإستعمار، وإلى المادية: مادية البورجوازية التى تجلت فى الرأسمالية، ومادية الكادحين الفقراء التى تجلت فى الشيوعية.

وأما العالم الآخر (البلاد الإسلامية) فقد رحلت عنه المدنية بعد

أن تركته هيكلا فارغا سيطر عليه الجمود فى كل مرافقه ، وركدت فيه تلك النفحة الإيمانية ، واستبدل بها ألفاظا جامدة جوفاء ، حتى غدا هذا العالم كما وصفه مالك قابلا للاستعمار قبل أن يستعمر .

ويقول محمد المبارك [1] : ويستثير مالك بن نبي هنا تفكيرنا وحماستنا فى آن واحد ، ويتنبأ بحل جديد لهذه العقدة ، ويبشرنا بمرحلة جديدة بدت طلائعها فى انهيار الحضارة الغربية ، حضارة الاستعمار والمادية ، وفى استيقاظ العالم الاسلامى . وفقا لنظريته التى بسطها فى أول كتابه فى « دورات المدنية وانتقالها » . ويقف بنا أمام تحليل رائع لواقعنا ولحركاتنا الحديثة فى التجديد والتقليد والاصلاح ، كاشفا عن سطحية بعض هذه الحركات والمظاهر التجددية ، مشيراً إلى نواحى الأصالة والعمق فى حركات الإصلاح والثورات الحقيقية من جهة أخرى .

ويرى مالك بن نبي أن هذا العالم الإسلامى هو الذى يحقق الظروف النفسية لظهور « الإنسان الجديد » ، وأن رسالته فى هذا العصر التوفيق بين العلم والضمير ، بين الأخلاق والصناعة ، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة وأنه فى منتصف الطريق إلى هذه الغاية ، وأنه وإن كان يجب عليه

(١) مقدمة الأستاذ محمد المبارك لكتاب « وجهة العالم الإسلامى » ترجمة عبد الصبور شاهين – طبعة ١٩٥٩ .

بلوغ مستوى المدنية الحالية المادى باستخدام كل مؤهلاته وطاقاته على أعتياد النظام فى العهد الذرى الذى يسيطر عليه التفكير الصناعى العلمى سيطرة شديدة ، غير أن مهمته تظل روحية تقوم على التخفيف من حدة الفكر المادى والأنانيه القومية .

غير أنه يعتقد أن مركز الثقل فى هذا العالم سينتقل من البحر المتوسط إلى آسيا ، وأنه يتجه اليوم نحو جاكرتا مستفيداً من تلك النفحة الصوفية التى لاتزال سارية فى العالم البوذى والهندوسى ، الذى يتصل به العالم الإسلامى فى آسيا ويجاوره .

ويخالف محمد المبارك ، المؤلف فى نظرته هذه ويقول : أنه مع تقديره للنهضة الرائعة التى تبدو فى أندونيسيا وبعض البلاد الآسيوية الاسلامية — يرى أن للعالم العربى مكانته ووظيفته الحيوية فى قلب هذا العالم الاسلامى ، وأنه أوتى القدرة على التوفيق بين القيم المادية والروحية ، وإقامة التوازن بينهما ، وأنه بحسن تفهمه للغة القرآن ولرسالة الحياة الجامعة بين المقاييس المادية والروحية ، والجهد المادى والخلق ، لا يزال محط الأمل وموضع الرجاء ، دون أن ينقص ذلك من قيمة الشعوب الإسلامية الأخرى ، ومن خصائص عبقريتها ، ولو أن العالم العربى لايزال وعيه لم يبلغ العمق المطلوب ولا يزال شعور

الاضطلاع بحمل عبء مثل هذه الرسالة الحضارية الكبرى ضعيفاً خافتاً . ولكن القوى المحركة والبواعث النفسية ، والدفقات الإيمانية لاتسير بسرعة منتظمة ، بل بوثبات تتجاوز حساب الحاسبين . ومالك ابن نبي فى كتابه « فكرة الافريقية الأسيوية » يبدو أقرب إلى هذا الرأى .

* * *

ومالك بن نبي رمز للمرحلة الجديدة التى بدأها الشعب العربى : مرحلة التحرر الفكرى ، التحرر من الاستعمار ، والنفوذ الفكرى، والتبعية الثقافية والحضارية ، مرحلة الاستقلال الحقيق والشعور بالذات ، والثقة بالقدرة على البناء والسير بركب الحضارة .

ومالك بن نبي ليس صاحب نظرية فلسفية فى الحضارة فحسب ، بل داعياً مؤمناً يجمع بين نظرة الفيلسوف المفكر ومنطقه ، وحماسة الداعية المؤمن وقوة شعوره ، وإن آثاره فى الحقيقة تحوى تلك الدفعة المحركة التى سيكون لها فى بلاد العرب أولا ، وفى بلاد الاسلام ثانيا أثرها الايجابى وقوتها الدافعة . وقلما استطاع كاتب مفكر أن يجمع كما جمع بين سعة الاطار والرقعة التى هى موضوع البحث ، وعمق النظر وقوة الاحساس والشعور ..

ومالك بن نبي ينهل من ينابيع الحقيقة الخالدة .. ليضىء للناس طريق الحق ، والخير .. والسلام ..

مفـــدى زكريا

من أعلام شعراء الوطنية والكفاح ، ولد سنة ١٣٢٦ هـ بقرية بنى يسجن فى واحة ميزاب بجنوب الجزائر ، تعلم فى تونس ، ودرس القرآن الكريم واللغة الفرنسية ودخل الخلدونية ثم جامع الزيتونة .

يقول فى ترجمته لنفسه فى كتاب شعراء الجزائر للزاهرى :

إن أساتذته فى البعثة العلمية إلى تونس هم أبو اليقظان ابراهيم ، وابراهيم أطفيش ، وقد حضر هنالك مسامرات الأســـتاذ العربى الكبادى ، بمدرسة الترجمة للغة العربية العليا ، وقال : إنه درس جزءاً من كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة .

شارك مفدى الشعب الجزائرى فى كل ملمة ألمت به ، وما أكثر ما أصاب الجزائر من ويلات على أيدى الاستعمار وأعوانه ... حتى الطبيعة ثارت .. وغضبت .. ودمرت مدينة ، الأصنام ، بزلزال عنيف سنة ١٩٥٤ .

وحرك هذا الحدث وجدان الشاعر مفدى زكريا فقال :

هو الأثم زلزل زلزالهم   فزلزلت الأرض زلزالها
وحملها النـاس أثقالهم   فأخرجت الأرض أثقالها

وقال ابن آدم فى حمقه يسألها ساخراً : ما لها ؟
فلا تسألوا الأرض عن رجة تنادى الجحيم وأهوالها
إلا أن أبليس أوحى لكم إلا أن ربك أوحى لها

ووجه الشاعر النداء الحار إلى الطبيعة ، يرجو الرفق والعطف على هؤلاء المنكوبين ، هؤلاء الذين جردتهم الطبيعة من كل شىء فهم : حفاة ، عراة ، جياع ... يصارعون الموت ... فقد فقدوا كل شىء ... سوى محاجر العيون التى تندب وتبكى أطلال البيوت التى شردوا منها ، فهم أشبه بالهياكل الضعيفة ، ولم ترحمهم السماء ، فأخذت تطاردهم بماء منهمر ...

فنى الحى قوم عراة حفاة جياع ... تصارع آجالها
هم فقدوا كل شىء سوى محاجر تندب أطلالها
هياكل حتى السماء أرسلت تطاردها اليوم هطالها

وهذا المنظر المؤثر الذى يحرك الجماد ، لم يحرك بعض النفوس للبذل والعطاء ، فحز فى نفس الشاعر أن يرى أناسا لم يحركوا ساكنا ، ولا بادروا بمد أيديهم البيضاء إلى إخوانهم فى الوطن والإنسانية ، فصب عليهم جام غضبه ، واستنزل عليهم لعنات الله العلى القدير .

أما أولئك الذين واسوا الجراح فهم أهل الجزائر ، ولهم الحمد والشكر ..

وقوم إذا جئتهم أمسكوا   وشدوا على الدار أقفالها
كرام مساريع فى موبقات   جبين المروءة يندى لها
فيا لعنات احصدى أنفساً   عن الشعب تمسك أموالها
ويا صلوات أعضدى معشرا   غدوا للجزائر آمالها
وقالوا : سنبق على عهدها   وقالوا : نموت ونحيا لها

واكب مفدى زكريا الثورة ، وتغنى بها ، وعبر عنها أصدق تعبير .. فعندما قامت الثورة الجزائرية فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، وراحت تدمدم الأرض تحت أقدام الاستعمار ، تغيرت حياة الشعب الجزائرى وتفكيره ونظره إلى الأدب والفن وشتى نواحى الحياة الأخرى .

وبدأ الشعب حياة جديدة .. فقد ولد من جديد .. فى ليلة مباركة هى بحق : ليلة القدر الكبرى .. فقد أشرقت فيها شمس الحرية ، على الجزائر الثائرة ، وأشعل أبناء الجزائر نار الثورة ، ليحرروا وطنهم ، كما هزت « جبهة التحرير » الشعب .. فهب الشعب يعمل لتحقيق أهدافه السامية ..

دعا التاريخ ليلك فاستجابا   «نوفمبر» هل وفيت لنا النصابا؟

وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليـلة القدر الجوابا
تبـارك ليلك الميمون نجماً وجل جلاله هتـك الحجابا
زكت وثباته عن ألف شهر قضاها فيك يلتحف السرابا
تجلى ضاحك القسمات تحكى كواكبه قنابله لهـابا
بناشئة هناك أشـد وطئاً وأقوم منطلقاً وأحد نابا
مضت كالشهب وانحدرت شظايا تلهب فى دجنتها التهابا
وهزت « جبهة التحرير » شعباً فهب الشعب ينصب انصبابا

وفى هذه الليلة الخالدة ، دوى صوت الرصاص ، من جبل « شلعلع » فتجاوبت معه جبال « جرجرة » ، وأطلقت هى الأخرى الجواب . وشبت فى ذرى « وهران » نار الثورة ، وزلزل سياسة فرنسا . نضال الشعب الذى أناب عنه دوى الرصاص ، ليناقش المحتل الغاصب ، الذى استيقظ من رقاده وأسقط عن ناظريه العصائب .

ولعلع من شلعلع ذوبان فاطلق فوق جرجرة الجوابا
وشبت فى ذرى « وهران » نار رآها برج « مدين » فاستجابا
جهـاد دوخ الدنيا وألقى هنالك فى سياستها اضطرابا
وزلزل من صياصيها فرنسا وأوقع فى حكومتها انقلابا
وأوفدت الرصاص ينوب عنها يناقش غاصب الشعب الحسابا
فأيقظت القنابل من تعامى وأسدل فوق ناظره النقابا

وتحدث الشاعر عن الصحراء .. حديثاً عذباً جميلا : هذه الصحراء التي تفجر منها الذهب الأسود فأسال لعاب المستعمر .. هذه الصحراء التي من أجلها ضحى الشعب بدمه وروحه ، فسطر نضاله في سجل الخلود :

وفجر بئر « مسعود » بلال فأذن واستمال له الرقابا
وكم للجهاد بها قمنا نتضح بالدم الغالي الترابا
شققنا فوقها للمجد طرقا وفتحنا بها للخلد بابا
وفي صحرائنا جنات عدن لها تنساب ثروتنا انسيابا
وفي صحرائنا الكبرى كنوز تطارد عن مواقعها الغرابا
وفي صحرائنا تبر وتمر كلا الذهبين راق بها وطابا
وفي صحرائنا سحر وشعر كلا الملكين حط بها الركابا
وفي صحرائنا أدب وعلم زكى بهما المثقف واستطابا

وهذه الصحراء هزت مريم العذراء يوما نخيلها ، فأسقطت منها الرطب الجنى ، هذه النخيل التي يرتاح إليها الغنام وهو يرسل أنغام الناى العذبة ، ويدلى في الغدير الحلو ساقه ، يداعب مياهه ويغترف منها بيديه ليطفىء ظمأه ، يعاف هذه الذئاب التي كدرت صفو حياته ، فقد كان لا يعرف ـ في هذه الجنة ـ النفاق والخداع .. ولكن : منذ أن جاء هؤلاء الأغراب .. أصبحت حياته كلها عذاب متصل وشقاء مقيم :

وهزت مريم العذراء نخلا   فأسقطت الفالوذج والرطابا
يدغدغ تحتها الغنام نايا   فيطلق من فم الغنم الربابا
يدلى فى الغدير الحلو ساقا   وبالكفين يغترف الشرابا
قرير العين فى الفلوات أضحى   يعاف الناس مذ ألف الذئابا
فما يدرى بجنته نفاقا   ولا كذبا ولا خان الصحابا

* * *

وفوق منابع البترول حاد   يناغى العيس والجبل العرابا
على خطواتها نشوان يشدو   فتطوى فى مراحلها اليبابا
تساجله الأغانى وهى تشوى   فتلسبه ويلسبها العذابا
فما تدرى المطايا وهى تسعى   أدسن الشعب أم دسن الشعابا ؟
وتحت نعالها استقلال شعب   يلاق فى المنظمة الصعابا

وقد وفق مفدى زكريا فى رسم هذه الصورة الجميلة المشرقة للصحراء الجزائرية ووصف حياة أهلها وأخلاقهم ، وما فيها من مناظر خلابة ، بأسلوب ساحر ، وفى نغمة هادئة عذبة تحبب اليك الصحراء ، برغم حرها ولظاها الشديد .

وكان تفجير فرنسا للقنبلة الذرية فى صحراء الجزائر حدثاً خطيراً انفعل به الشاعر مفدى زكريا ، فقال فى قصيدته « ابن القنبلة الذرية » :

ما دهاه .. ويل أمه .. ما دهاه؟   ويلتاه من جيله ويلتاه

ماله فى الحياة يولد أعمى   لم تر الكون باسما مقلتاه
ماله مقعداً يدحرج رجليه ؟   وماذا جنى فشلت يداه ؟
ماله لم تزل تهدهده الأ   م ولم تستمع لها أذناه ؟
ماله أخرس تناجيه فى المهـ   ـد ولم تبتسم لها شفتاه ؟
ولماذا لم يبك بين ذراعيـ   ـها دلالا ، ولم يقل : أماه ؟
ألهذا الوجود جاء وحيداً ؟   أم له فى زمانه أشباه ؟
ويلتاه من جهله ويلتاه

° ° °

قذفته إلى الحياة يد المو   ت فلم يقض فى الحياة ربيعا
وسقته السموم فى عالم الغيـ   ـب فرنسا فجاء شكلا مريعا
ابن أفريقيا الشهيد وقد خر على مذبح الطغاة صريعا
اتخذت منه «للتجارب» قرباناً ، فرنسا فحطمته رضيعا
شوهت خلقه جريمتها الكبرى وجرته للخراب سريعا
ليته ظل فى الفضاء بخاراً ، ليته دام كالشعاع رفيعا
ليته ظل فى السماء منيعا

شبح كالخيال لم يك كالحسـ   ـى فيرجى .. ولم يمت فيوارى
عاش حيران فى عذاب وبؤس   بين قوم معذبين حيارى
ظل يسعى إلى الفناء رويدا   يائساً لا يغالب الأقدارا

طحن الداء جسمه وأحال الشــقاء ذراته هبــاء فطــارا
نثرت من حطامه لعنات   كالصواريخ نقمة وانفجارا
نازلات على طغاة فرنسا   لم تزل كالجحيم تقذف نارا
لقنتها عواقب البغى سرا   بث فيها عدل السماء قرارا
حملتها العصور خزياً وعارا

* * *

شعب أفريقيا ـ ستنصفك الدنـ   ـيا وتقضى الشعوب الأبية
وسيحكى هذا الزمان ويروى   للــبرايا فضــائح المدنية
خذ الثأر من فرنسا وخلد   فى الضحايا تلك النفوس الزكية
وانفجر صارخا.. وقل: يا فرنسا   أنت فى الأرض هفوة أزلية
يا فرنسا . . . يا لعنة البشرية

ومن شعره :

نهضت على ذات الإله مناضلا   وليس لغير الله سعيى وإقبالى
وقت وسيف الحق فى الكف ساطع   لتهذيب أرواح وتقطيع أوصال
وأيقنت أن المجد سبل خطيرة   فقدمت دون المجد روحى وآمالى
فما المجد إلا جنة دون وصلها   تناثر أعناق وتمزيق آجال

وللشاعر مفدى زكريا ، ديوان « اللهب المقدس » وهو صاحب النشيد الرسمى لجمهورية الجزائر ومطلعه : « قسما بالنازلات الماحقات ، والدماء الزاكيات الدافقات » .

الفصل الخامس

لمحات من الجزائر

البيوت الجـــزائرية

لم تحتفظ الجزائر بطابع بناء خاص بها ، بسبب توالى الأقوام المختلفة عليها ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نتبين من خلال ما بقى فيها من آثار العمران ، أن طراز بنائها لايختلف عما هو عليه فى باقى مدن البحر المتوسط . وخاصة البلاد الإسلامية منها ، التى تأثرت بطراز البناء اليونانى والرومانى ، وهو الذى نشرته روما حول حوض البحر المتوسط ، يضاف إليها طريقة النقش والتزيين التى حملها مسلمو الأندلس معهم إلى شمال أفريقية .

وخارج البيت الجزائرى لا يدل على عظمته الداخلية ، فاذا ما تجاوز المرء باب البيت الذى كثيراً ما يكون مزداناً بالرخام ، وتكون له مظلة من القرميد فى معظم الأحيان ، يدخل دهليزاً يطلقون عليه سقيفة وهى تسمية صحيحة ، ويختلف طول هذا الدهليز طولا وعرضاً باختلاف البيت من حيث الكبر والصغر ، ويكون على جانبيه مقاعد حجرية أو خشبية لجلوس الضيوف قبل أن يؤذن لهم بدخول البيت ، وتكون جدرانه مستورة بنوع من البلاط يشبه القاشانى ، وهو بلاط حسن الصنعة لماع مصقول ، كان شائع الإستعمال فى شمال افريقية حتى لا يكاد بيت يخلو منه .

وفى بعض بيوت الكبراء والعظماء يمثل هذا البلاط وقائع تاريخية أو صور أشخاص معروفين . وكان هذا البلاط يصنع فى أسبانيا وهولندا وغيرهما من البلاد الأوربية . وقد يكون فى هذا الدهليز أعمدة جانبية رخامية وقد لا يكون . ومن هذا الدهليز يدخل المرء إلى دهليز آخر ، فى بعض الأحيان ، أو يدخل مباشرة إلى صحن البيت وذلك يختلف باختلاف سعة البيت ، ويكون صحن البيت ، فى معظم الأحيان ، على شكل مربع وعلى جوانبه الأربعة أروقة تفصلها عن صحن البيت أعمدة عليها أقواس . ووراء الأروقة تكون غرف البيت ، وهذه الأروقة تحمى أهل البيت من حر شمس الصيف ومطر الشتاء . وأكثر ما كان الجزائريون يبنون أربع غرف فى أربع جهات صحن البيت ، أى غرفة واحدة فى كل جانب . وتكون هذه الغرفة مستطيلة وقليلة العرض ، والهدف من ذلك هو أن تفيد الغرف من النور الذى تستمده من صحن البيت ، بواسطة النوافذ المطلة عليه ، على نطاق أوسع مما كانت عميقة إلى الداخل .

ويكون صحن البيت ، عادة ، مكشوفاً ، وكثيراً ما تكون فيه فسقية ماء . وتكون البيوت فى الغالب إذات طابقين ، وقلما تكون ذات ثلاثة طوابق . ومهما كان عدد الطوابق فإنها تكون كلها على نمط

واحد ، ويصعد إلى الطوابق العلوية بسلم حجري قد يكون من الدهليز وقد يكون من صحن البيت .

ويعنى الجزائريون بتزيين البيوت بالبلاط الذى نوهنا به آنفا ، وذلك بإلصاقه على الجدران إلى علو متر أو أكثر ، كما أنهم يعنون بحفر الخشب الذى يزينون به الجدران ؛ أو أنهم يزينون الجدران والسقوف بنقوش فى الجص يسمونها « نقش حديدة » .

أما بيوت أوساط الناس فهى فى الغالب تكون ذات دهليز ، ولو صغير ، لكى تفصل أهل الدار عن الخارج ، ثم قد يكون لها رواق واحد ، أو لا يكون لها رواق قط ، ولكن غرفها تكون أيضا على الشكل الذى ذكرناه من حيث الطول والعرض .

ويعنى أهل شمال أفريقية قاطبة بطلاء بيوتهم من الخارج بالجير دفعا لحرارة الشمس ، ولذا فإن جميع مدن شمال أفريقية تمتاز بهذه الصفة.

هذه هى دور الجزائر القديمة ؛ وأما الآن ، فقد اختلف شكل البناء ، واستوت فى ذلك بلاد الجزائر وكل العالم ، وأصبح البناء على نوعين ؛ إما بنايات ضخمة ذات طوابق عديدة ومنازل كثيرة ، وإما أنها منازل مستقلة ذات طابق واحد أو طابقين تحيط بهما حديقة .

* * *

لا يعنى الجزائريون كثيراً بأمر الأثاث ، شأنهم فى ذلك شأن جميع البلاد الحارة ، إلا الذين أخذوا بأسباب التمدين الحديث ، وأصبحت بيوتهم كبيوت أهل أوربا فى ظاهرها وباطنها ، لكن وجود الأتراك ثلاثة قرون مسيطرين على الجزائر قد أحدث تطوراً كبيراً فى تأثيث البيوت . وانتقل الأثاث التركى السورى بحذافيره إلى الجزائر . وغدت بيوت قادة الجيش والحكام والأعيان لا تختلف فى شىء من حيث أثاثها عن دور الاستانبوليين والدمشقيين [١] . لا بل قد نقل كثير من الحكام الأثاث الدمشقى بكامله إلى الجزائر ، وإن من ينظر إلى غرفة من غرف دور العظماء الجزائريين ، فى الماضى ، ولا سيما فى العهد العثمانى لا يشك بأنه فى غرفة من غرف بيوت دمشق بفرشها وأثاثها ورياشها .

ولا يزال فريق من الأغنياء الذين تمدينوا ، ولكنهم لم يأخذوا بكل حديث ، يعنون بهذا الأثاث ، ولا سيما ما كان منه مصدفاً ، ويجلبونه من البلاد الشامية ويتنافسون على اقتنائه ويتفاخرون به . غير أن هذا أصبح جد قليل .

على أن بلاد الجزائر ، كما هى الحال فى كل الشمال الأفريقى ، تتقن

---

(١) د. احسان حقى : الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد ص ٢٠١ وما بعدها .

صنعة حفر الخشب اتقانا كبيراً . وكانت فيما مضى تعنى بصنع أثاث البيوت من الخشب المحفور .

وأما الأثاث البربري القديم فهو يتألف من فرش محشوة بالصوف تصنع في الغالب بطول ثلاثة أمتار وعرض ثمانين سنتيمترا ، وعلى نحو ٣٠ إلى ٤٠ سنتيمترا ارتفاعا ، وتوضع مباشرة فوق الأرض أو على خشب عادي لبقيها الرطوبة أو توضع على الزرابي ، وتنقل هـــذه الفرش من غرفة إلى غرفة حسب الضرورة ، ولذلك فقد يجد الإنسان بيتاً كبيراً فيه عشرات الغرف ولا يجد فيه غرفة لها أثاث خاص بها ، بل لا يجد غرفة مؤثثة ، وإنما تنقل كل هذه الفرش التي تزيد أحيانا على العشرات ، بحسب أهمية البيت وكبره أو صغره ، من غرفة إلى أخرى حسب اللزوم . وقد توضع وراء ظهور الجالسين مساند وقد لا توضع .

ولكن هذا النوع من الأثاث أخذ يتلاشى من الجزائر إلا قليلا في القرى والبادية ، وإذا ما عنى به بعض الناس فإنما يعنون بفرش غرفة واحدة لجلوس أهل البيت فقط وهذا قليل .

وأما متوسطو الحال أو الفقراء فإنه يكون عندهم غرفة واحدة مفروشة بمثل هذا الأثاث ، أو مزيجا من الأثاثين البربري والأوربي لاستقبال ضيوفهم .

وتختلف قيمة هذه الفرش باختلاف حالة أصحاب البيت ، فقد تكون من القطيفة أو تكون من قاش عادى . وهذا النوع من الأثاث هو الذى كان شائعاً قبل قرن من الزمن فى أكثر بلاد العالم ، ولكن أهل كل قطر كيفوه بالكيفية التى توافق محيطهم وبلادهم .

المرأة الجـــزائرية

كانت التقاليد البربرية تحترم المرأة وتعطيها منزلة ممتازة فى الأسرة والمجتمع ، فلما أشرق على العالم نور الاسلام دعم هذه التقاليد وأحل المرأة محلها المرموق فى المجتمع وظل هذا شأنها إلى اليوم ، وعلى الرغم من الظروف السياسية الجائرة التى سادت الجزائر وخاصة فى عهـــد الاستعمار الفرنسى ، والتى اضطرت المرأة إلى التوارى عن الحقل العملى ، فإنها بقيت محتفظة فى الأسرة بمكانتها الممتازة وكلمتها المسموعة ، بل إنه يمكن القول بأن المرأة الجزائرية هى اليوم ، كما كانت من قبل ، سيدة منزلها ، والحياة بينها وبين الرجل قائمة على أساس الاختصاص ، فالرجل يكدح ويعمل من أجل توفير حياة أفضل للأسرة ، والمرأة تعمل داخل منزلها وتربى أولادها ، ولا يتدخل أحد فى شؤون صاحبه إلا بمقدار ما تقتضيه مصلحة الأسرة .

والمرأة الجزائرية الحرة هى التى أنجبت ، على الرغم من اضطهاد وعسف وظلم قوى الاستعمار الفرنسى ، أمثال رجال الثورة ، كما أنجبت من قبل أمثال عبد القادر الجزائرى ، وصحبه الصناديد الأبطال .. وإذا كانت الظروف السياسية أو بالأحرى سياسة الإستعمار التى عمدت إلى قتل الكرامة فى النفوس ، والكبرياء الوطنى فى القلوب ،

كما تعمدت نشر أجنحة الجهل ليظلل بأجنحته السوداء أبناء الشعب الجزائرى . . الرجل والمرأة على سواء ، والقضاء على الروح القومى فى الأفئدة ، فإنها لم تستطع قط أن تنسى المرأة الجزائرية أنها وطنية حرة ، وأنها خلقت لكى تكون أبية ولتربى أحراراً يدافعون عن حرية وكرامة وطنهم .

ورأت فرنسا أنه لا بد لها من فتح بعض المدارس ذراً للرماد فى العيون ولكنها جعلت هذه المدارس فرنسية لحماً ودما ، وتناست أنها فى بلاد عربية أصيلة . .

وأرادت أن يكون أبناء الشعب الجزائرى من الفرنسيين لغة وتفكيراً وعلماً ، بيد أن الشعب الجزائرى رفض هذه الفكرة ، ورفض بالتالى أن يعرض بناته إلى مثل هذا المسخ الخلقى ، لأن العلم الذى يؤدى إلى ترك المرء تقاليده وعقائده ومقوماته القومية والخلقية هو سم زعاف. ولما كانت المرأة هى صانعة الأجيال الصاعدة ، فقد أبت أن تندمج فى هذه المدارس ، وآثرت المرأة الجزائرية التمسك بتقاليدها ، وليس ذلك تعصباً أعمى من الجزائرية بل لأن الواجب القومى يحتم عليها ذلك ، ولذا فإننا نرى الجزائرية اليوم ما زالت ، فى مظهرها ، أقرب إلى الماضى ، منها إلى الحاضر ، وذلك من أجل الحفاظ على قوميتها .

أدرك الفرنسيون هذه الحقيقة ، وأدركوا ما للمرأة الجزائرية من أثر عميق في الأسرة ، فعقدوا العزم على أن يقتحموا عليها هذا الحصن المنيع لكي يجعلوها آلة تسخر لتربية الأقنان للفرنسيين ، فأصدروا الصحف باسمها وخصصوا لها برامج في المذياع والتليفزيون ، وحثوا الرجال على دعوة المرأة إلى الأخذ بأساليب التقاليد الفرنسية ، وكان الهدف من ذلك كله هدم الحصن الجزائري المنيع و « فرنسة » المرأة الجزائرية . بيد أن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع . ولم يكن محافظة الجزائري والجزائرية على تقاليدهما القومية من قبيل التعصب الأعمى ، بل هو ضرورة حتمتها السياسة لكي لا ينصهروا ولو يظهرهما في البوتقة الفرنسية فيضيع مقوماتهما .

وليس معنى تمسك المرأة الجزائرية بتقاليدها وزيها أنها لم تتطور عقلياً ، ولا ارتقت فكراً ، أو أنها لم تدرك معنى ما يدور حولها من أحداث ، أو ما يحيط بها من تطورات وانقلابات إجتماعية عالمية ، بل إنها ، على العكس من ذلك ، تطورت كثيراً ، وأدركت مسئوليتها إدراكا كاملا ، ولكنها ظلت محافظة على تقاليدها القومية لكي تبقى جزائرية .

والمرأة الجزائرية مثل كل نساء العالم الشرقي ، منها الحضرية ، ومنها البدوية . .

والبدوية سافرة لا تعرف الحجاب ، والحضرية منها الغنية المنعمة ، ومنها الفقيرة وكلتاهما محتجبتان ، وإن كانت المنعمة أشد محافظة على حجابها وذلك لأن الفقيرة بحكم حاجتها إلى الاندماج في المجتمع للعمل والكسب تكون أقل محافظة عليه .

والحجاب الجزائري حجاب لطيف جميل إذ أنه يصنع من الحرير أو من القطن الأبيض الشفاف وهو قطعة واحدة من الثوب غير مخيط تلتف به المرأة بطرق تختلف باختلاف المدن . ويسمى هذا الثوب سارى أو حايك ، على أن جميع المحتجبات يتركن عيناً واحده أو العينين غير محجوبتين عن الأنظار ، ويضعن برقعاً شفافاً على وجوههن يسمى عامة يغطى الأنف والخدين وقليلا من الذقن ويبق النحر ، على الأكثر ، بارزاً .

بيد أن محافظة المرأة الجزائرية على حجابها لا ينفي أن يكون هناك سافرات ، وتعمل المرأة اليوم مدرسة وطبيبة وممرضة .. وغيرها من مختلف مجالات العمل ..

وتشارك المرأة الجزائرية الرجل الجزائري في صنع الجزائر الجديدة ، وإقامة مجتمع الكفاية والعدل .. وتوفير مستقبل زاهر لكل مواطن ، كما شاركت ـ من قبل ـ في حرب التحرير ..

وقدمت فدائيات وبطلات مثل للافاطمة ، وجميلة بوحيرد ، وجميلة بوعزة ، وغيرهن ممن قدمن أرواحهن كفارة على مذبح حرية الجزائر العربيـــة .

وتختلف لباس المرأة الجزائرية باختلاف محيطها وبيئتها ، فالتى أخذت بأطراف الحديث ، وهن أهل المدن عامة ، تلبس اللباس الأوربي كما هو . والتى ما زالت متمسكة بالقديم تلبس السراويل الطويلة العريضة . وهى من قماش حريرى أو ما يشبهه من لباس النساء ، وتكون بألوان مختلفة ، وقد تكون أحياناً مطرزة أو مزركشة ، وتبلغ عرضاً بحيث لا يستطيع المرء أن يميز بسهولة فيما إذا كانت سراويل أو ثوباً .

أما البدوية أو الفلاحة فإنها مثل بدويات وفلاحات البلاد الأخرى ، تلبس الثوب الطويل الفضفاض ، وتضع على رأسها خارا ، وتعصب فوقه عصابة تختلف أشكالها وحجومها عن بعضها بعضاً إختلافاً كبيراً ، وتبلغ عصابات الرأس أحياناً حداً كبيراً بحيث تصبح كالعمائم .

وما دمنا نتكلم عن المرأة يجدر بنا أن نتحدث عن الحلية لأنها جزء منها ، لا ينفصل عنها سواء أكانت حضرية أو بدوية ، متأخرة أو عصرية ، وسواء أكانت من أهل الشرق أو من أهل الغرب ،

وبالتالى فالحلية بالنسبة إلى كل نساء العالم جزء متمم لجمالها لا غنى لها عنه .

وكانت الحلية الفضية والخزفية شائعة فى الجزائر وخاصة فى البادية وما زالت كذلك إلى اليوم .

أما المرأة الحضرية فإنها تكتفى من الحلية بما تكتفى به أخواتها فى العالم المتمدن .

الأسمــاء والألقاب

يحرص الجزائريون على أن يكون اسم البكر «محمداً» إن كان ذكراً، وفاطمة الزهراء إن كانت أنثى أو أنهم يسمون الذكر باسم جده لأبيه تخليداً لهذا الاسم . وأما إن كان الوالدان من المتدينين فإنهم يطلبون إلى شيخ طريقتهم أن يختار إسما للمولود .

ومن التقاليد القديمة عند الريفيين خاصة ، أنهم كانوا يسمون المولود باسم الشهر العربى الذى ولد فيه مثل محرم وربيع ورجب وشعبان ورمضان ، وقد يسمونه باسم الخميس أو الجمعة . وأهل الجنوب يسمون أولادهم الذين يولدون فى شهر ذى الحجة حجاجا ، تبركاً بهذا الشهر وتفاؤلا بأن يكتب الله العلى القدير للوليد حج بيته الحرام .

وهناك كثير من الناس يسمون أولادهم بأسماء الولى الميت المعروف فى ناحيتهم ، ويكثرون من اسم عبد القادر تيمنا بعبد القادر الجيلانى .

وأهل مدينة الجزائر يكثرون من اسم عبد الرحمن نسبة إلى الولى سيدى عبد الرحمن بوقبرين .

وأهل تلمسان يكثرون من اسم بومدين ، وأهل البليدة يكثرون من اسم أحمد أو أحمد الكبير ، وهما وليا هذا البلد .

ومن غريب تعريف اسم محمد أنهم يلفظونه ، كأبناء الشعب العربى فى مصر ، بفتح الميم الأولى والحاء ، ولكنهم يلفظونه أيضا لفظا صحيحاً بضم الميم الأولى ويعتبرون كلا من اللفظين اسما مستقلا عن الآخر وللتفريق بين الاسمين يكتبون «محمد» بالفتح ، و «محمد» بالضم لكى يدلوا على شخصين مختلفين ، ويسمون من كان أحده محمدا : أحمد وحاده على السواء .

وأداة التعظيم بجميع الناس فى الشمال الأفريقى عامة هى لفظة «السيد» ولكنهم يلفظون السيد مع ياء الإضافة فيقولون وهم يوجهون كلامهم إلى أحد الأشخاص أو يتكلمون عنه : سيدى أحمد بدل قولهم : يا سيد أحمد .

وهم لا يعرفون أسماء الأسر بل يعرفون باسم «بن فلان» فيقولون مثلا محمد بن مصطفى ويبقى هذا الاسم لقبا فى الأحفاد كما توارثه الآباء عن الأجداد .

ومن غريب استعمالهم لهذا اللقب أنهم يطلقونه على الأناث والذكور على حد سواء ، أى أنهم لا يقولون فاطمة بنت محمد مثلا ، بل يقولون فاطمة بن محمد ، فكأن كلمة «بن» أصبحت جزءاً من الإسم فلا تؤنث ولا تذكر .

وأسماء النساء هي الأسماء العربية الإسلامية . وأداة التعظيم للمرأة هي « للا » مثل للا فاطمة ، وللا عائشة . ويطلق هذا اللفظ على السيدة والآنسة وقد يكتفون باللام المفتوحة وحدها مضافة إلى الاسم فيقولون لعائشة بدلا من للا عائشة ، بيد أن هذا لا يكون إلا في الحديث .

ومن علامات تعظيم النساء إذا ما تكلم المرء عنهن هو أن يذكر القائل مع أسمهن كلمة أمي أو خالتي فيقولون : أمي خديجة وخالتي فاطمة حتى ولو لم يكن بين المتكلم والمتكلم عنها أو المخاطبة أية صلة أو نسب فيقول المرء وهو يتحدث من امرأة غريبة عنه ، أمي خديجة . وخالتي فاطمة .

الجامعة الجزائرية

فى مدينة الجزائر جامعة ، هى من أقدم الجامعات فى البلاد العربية كلها ، إذ أنها قامت على المعهد الطبى الذى أنشىء سنة ١٨٧٧ ، فى دار مظلمة فى درب ضيق . وفى سنة ١٨٨٧ وضع أساس الجامعة الحالية ، وهى جامعة ذات بنايات ضخمة تضم معاهد للتدريس النظرى والعملى. يضاف إليها حديقة للاختبارات النباتية ، ومخابر للتجارب العملية ، وفيها مكتبة كبيرة ، ومتحف قيم لمجموعات أثرية حيوانية ونباتية . وتضم الجامعة اليوم كليات للطب ، والصيدلة ، والحقوق ، والعلوم ، والآداب ، والدراسات الإسلامية .. وعلوم الإدارة .. والاجتماع . وقد اختارت الحكومة ضاحية « بن عقنون » وهى من ضواحى العاصمة ، وتقع على هضبة تطل على مدينة الجزائر وتبعد عنها سبعة كيلومترات ، وبنت فوقها مدينة جامعية لم تستهدف من ورائها إيواء الطلاب فحسب ، بل أن تتناسب هذه المساكن مع عظمة الجامعة ، وحاجات الطالب كلها ، وتقدم الزمن ، فجاءت هذه المدينة فريدة فى نوعها .

ولما كانت الأرض ، التى بنيت عليها المدينة الجامعية ، أرضاً واسعة ، فإنها لم تحمل البنايات طوابق عدة متصاعدة فى الهواء ، بل

جعلتها ثلاثة طوابق ، وكلها مبنية بشكل واحد وعلى صورة طائرة لها جسم وجناحان ، ومدخل البناية من بين الجناحين .

ولكل طابق من الطوابق الثلاثة شكله الخاص وامتيازه ، فالطابق العلوى لكل غرفة منه شرفة خاصة ، والطابق الوسطى له شرفة تمتد أمام جميع غرفه ، والطابق الأرضى أمامه فسحة من الأرض خاصة بكل غرفة من غرفه ومحاطة بنوع من الشجر والأزهار ، بحيث تجعل من هذه البقعة حديقة خاصة بالغرفة التى أمامها .

وكل طابق مؤلف من صف واحد من الغرف ، أمامها كلها ممر له نوافذ كثيرة ، وكل غرفة خاصة بطالب واحد فقط ، وجميع الغرف بشكل وحجم واحد ، وفى كل غرفة منضدة للدرس وسرير النوم يصلح مقعداً بالنهار ، وصيوان للثياب ومثله للأحذية ، وخزانتان للكتب ، وضمن الغرفة مكان صغير فيه مشن ماء بارد وساخن ، وفرش الغرف وسجفها ، كلها بلون واحد ، وشكل رائع جميل ، وقد وزعت الكهرباء فى الغرفة توزيعاً بديعاً يتناسب مع كل حال من يقظة أو نوم أو قراءة أو عمل . وهناك مكان لراديو أو تليفزيون إذا أراد الطالب ذلك . وللتوفير على الطلاب وخاصة طلاب الرياضيات ، الذين يحتاجون فى حل مسائلهم الرياضية إلى ورق كثير ، فقد تدارك المهندس هذه الناحية

وجعل له باب إحدى الخزانات سبورة ، حتى إذا أراد الطالب حل مسائله ، فتح باب الخزانة فوجد أمامه سبورة ، يقف أمامها ويحل مسائله كما لو كان فى غرفة الدرس .

وقد خصصت فى كل طابق غرفة مجهزة بآلة كهربائية ليستعملها الطلاب متى أرادوا فى صنع القهوة أو الشاى أو ما أشبه ذلك .

وفى المدينة الجامعية قاعة للمحاضرات ، ومطعم يقدم الطعام بأثمان زهيـــدة .

وأنشأت الجامعة مسرحاً تعرض عليه التمثيليات أو الأفلام السينمائية .

وهناك ملاعب لمختلف أنواع الرياضة . وبنايات المدينة الجامعية عاطلة كلها بحدائق . وتمتاز كل بناية عن غيرها بشكل الأزهار التى تعرض على بابها وجدرانها : فمنها الأحمر والأصفر والأخضر وغير ذلك .

الموسـيقى

ليس شك فى أن الشعب الجزائرى لقى من العذاب ألوانا ، ومن الظلم والاضطهاد ضروبا ، على يد الاستعمار الفرنسى . . ولذلك تكاد المداعبات الطريفة والنكات تنعدم من الأوساط الجزائرية .

أما الموسيقى فى البادية العربية ، فهى هى موسيقى بنى هلال وبنى سليم هنا . تعتمد على المعانى أكثر مما تعتمد على الأنغام ، فلا تجد فى الأنشودة الطويلة إلا لحناً واحداً بسيطاً يعاد مع كل مصراع من البيت بأعانة طبل وزمر . كما تجد نوعا من الموسيقى الحربية ذات أنغام قوية تتردد دائما صحبة قرع الطبول ، وتكون غالباً أثناء ألعاب الفروسية على ظهور الجياد.

أما فى المدن الكبيرة وأغلب القرى الساحلية فالحال غير ذلك تماما . ذلك أن رجال الأندلس والأتراك استقروا هنالك ردحا من الزمن فنقلوا إلى تلك البلاد موسيقاهم البديعة الخلابة العديمة النظير ، ولقد نشأ بعاصمة الجزائر خليط جميل جليل من الموسيقى الأندلسية الخالصة النقية ، والموسيقى الأعجمية الأغريقية التى أتى بها الأتراك فتكون من ذلك ديوان الموسيقى الجزائرية التى تقف شامخة الرأس أمام أى موسيقى شرقية أو غربية ، وقد حافظ عليها أهل الجزائر

احتفاظا دينيا وتناقلوها — لفظا وأنغاما — صاغراً عن كابر إلى يومنا هذا ، وهى موسيقى علمية فنية واسعة الغنى إلى درجة مفرحة .

كانت النوبات الجزائرية تشمل ٢٤ نوبة ، وأصلها من غرناطة ومالقة وأشبلية . وقد ضاع مع تطاول الزمن نصفها ولم يبق منها إلا ١٦ ، منها ٧ أصلية هى : الجاركة والصيكة والموال والعراق والرمل الماية والزيدان والمزموم ، و ٩ فروع هى : من الموال الذيل ورصد الذيل والماية ، من الزيدان الرمل والمجنبة ، من الجاركة الغريب ، من العراق الحسين والرصد ، من رمل الماية الغريب .

وكل نوبة تبتدى بتوشية وهى تقابل الباشراف عند المشارقة ، لها قيمة افتتاح الأوبرا ، ولا يلقى معها كلام وقد كانت لكل نوبة توشيتها الخاصة إلا أن الكثير من تلك التوشيات قد ضاع ولم يبق منها إلا ٦ وهى : رمل ورمل الماية وغريب وزيدان وصيكة وماية .

وبعد التوشية يقع المصدر وهو يشبه قطعة الأوبرا ويكون بطيئا ويمكن أن يلقى بعد التوشية مصدران ، وبعد ذلك يلقى البطايحى وهو أخف من الأول ثم درج وهو أخف أيضا ، أثر ذلك يقع الاستخبار وهو يقوم مقام الليالى فى الموسيقى الشرقية ويكون غالبا بالقاء بيتين من الشعر الأندلسى ينشدهما من نغمة النوبة صيت الحفلة وبعده يقع الانصراف وهو خفيف ، ثم تختم النوبة بالخلاص وهى نغمة رقص .

وهناك بعض افتتاحات دخيلة أغلبها أعجمى تستعمل مثل التوشية وتسمى : باشراف تشامبار ، تشامبار عجمى ، باشراف انقلابات .

أما الأشعار التى تنشد فى هذه النوبات فهى كلها من الأشعار الأندلسية ، فيها ما يتغنى بجمال الأندلس وطيب مناخها ولذة عيشها ، ويكون فى الأنغام ذات البهجة والسرور ، وفيها ما يندب سوء حظ الأندلس ويأسف على سالف أيامها ، ويكون فى الأنغام المشجية المؤثرة ، وهنالك روائع وبدائع فى الغراميات والغزل ،أما آلة الموسيقى الجزائرية فهى تشمل : العود والقانون والكمان والطار والدربكة والناى والرباب .

حافظ القوم على تلك الموسيقى محافظة غريبة ، لا فى مدينة الجزائر فحسب ، بل فى كل المدن الكبرى والساحلية بالقطر . وإن كانت موسيقى قسنطينة وتلمسان قد تأثرتا بعض التأثر بالموسيقى التونسية والشرقية ، فإن موسيقى العاصمة لم تتأثر بأى مؤثر خارجى .

هذا ولا يجب أن ننسى « المنولوجات » المصرية التى أخذت تظهر فى هذه الآونة الأخيرة مقتبسة أنغامها من الموسيقى المصرية والأوربية ، وقد أنشأ منها السيد محى الدين باش تارزى عدة قطع وطنية تستحث الهمم وتبذر الشعور ، وأنشأ السيد الرشيد القسنطينى عدة قطع رائعة فى انتقاد العوائد المحلية الفاسدة ومحاربة البدع والضلالات ولقى هذا النوع من الشعب إقبالا شديداً .

الفصل السادس

الارقام ... تصنع حياة الشعب

يستطيع الإنسان مشاهدة مظاهر القوة فى الشعب الجزائرى ، حينما يرى أولئك الذين خرجوا من تحت الأنقاض لإعادة البناء .

ويبدو أن البناء فى ذاته متعة لأبناء الشعب ، فهم لا يكفون عنه فى الليل والنهار . .

والشعب الجزائرى يبنى بلده ، فى ظروف قاسية ، ويكفى أن نورد بعض الأرقام المجردة من كل تعليق ليدرك الإنسان المأساة التى عاشها شعب الجزائر فى سنوات المعركة ضد الاستعمار الفرنسى ، إن هذه الأرقام تقول :

إنه سقط مليون ونصف مليون شهيد فى معركة التحرير .

وأن ثلثمائة ألف مقاتل اشتركوا فى أعمال المقاومة المسلحة .

وأن ثلاثة ملايين من السكان جمعوا فى « قرى الاعتقال » المحاطة بالأسلاك الشائكة .

وأن أربعمائة ألف هاجروا إلى تونس والمغرب الأقصى .

وأن سبعمائة ألف هاجروا من الريف إلى المدن بين سنتى ١٩٥٤ — ١٩٦٠ .

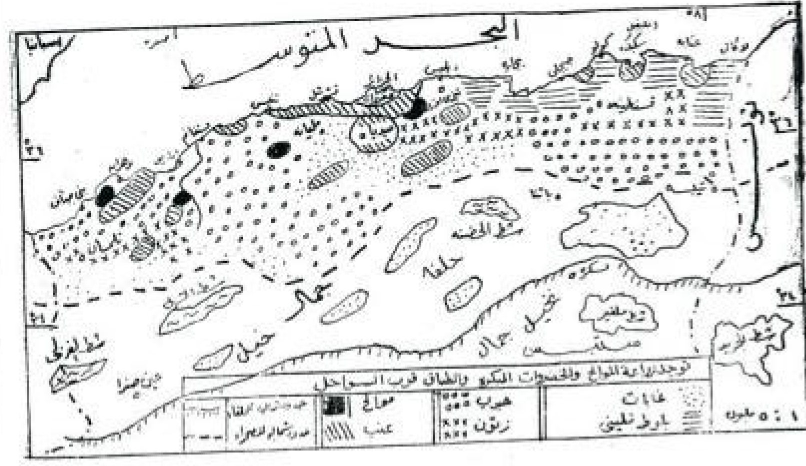
وثمانمائة ألف بين سنتى ١٩٦٠ — ١٩٦٣ .

وأن ثمانية آلاف قرية أبيدت عن آخرها .

فهل الأمر يحتاج إلى تعليق ؟ ! . .

ورغم كل هذه المصاعب رفع الشعب الجزائري رأسه ، ومضى في مسيرته يبني بلده بقوة جبارة ، وإرادة صلبة ...

في سنة ١٩٦٤ ، خاض الشعب « معركة الشجرة » ، ومعركة الشجرة هذه رغم إسمها الغريب هي إحدى معارك الجزائر الهامة . ذلك أن المطر المتساقط على سفوح الجبال والرياح الآتية من البحر ، والشلالات التي تندفع من أعلى القمم مع ذوبان الثلوج عندما ينتهي البرد ، ومختلف عوامل الطبيعة - تؤدي إلى تآكل مستمر في قشرة الأرض السطحية ، وهذا التآكل يسد منافذ المياه وقنواتها ، ويفسد نظام الري القائم في كثير من المناطق على تخزين المطر ومياه الشلالات خلف السدود ، كما يقضي على الطبقة الخصبة من الطمي الذي يغطي الصخور فيضعف صلاحيتها للزراعة ، وقد نتج عن سياسة حرق الغابات التي اتبعها جنود الإستعمار الفرنسي لحرمان الجيش الشعبي ، وفرق المقاومة من الاختفاء في الغابات - نتج عن ذلك الإسراع بعملية التآكل هذه ، ولذلك قامت حملة شعبية لغرس الأشجار ، بهدف حل مشكلة إقتصادية تهدد مساحات واسعة من الأرض الصالحة للزراعة بالبوار (٤٠ ألف هكتار أي حوالي ٩٠ ألف فدان سنويا) . وقد تم غرس ٢٤ مليون


البحر المتوسط
موالح
عنب
زيتون
غابات
اسبانيا

شجرة فى سنة ١٩٦٤ و ٢٥ مليون شجرة فى سنة ١٩٦٥ .

وتنتشر المراعى فى إقليم السهوب ، الاستبس ، والأغنام والمعز من أهم الحيوانات التى يعتنى بتربيتها فى هذا الاقليم حيث يبلغ عددها نحو ٦ مليون رأس ، ويقدر ما يصدر منها سنويا بحوالى مليون رأس و ٢٠ ألف طن من الصوف .

وفى إقليم الصحراء يربى البدو بجانب الأغنام الإبل التى تساعدهم على التنقل من مكان إلى آخر .

ويعتبر الحديد من أهم الموارد المعدنية فى الجزائر ويبلغ إنتاجه ٣٥ مليون طن سنويا ، وهناك عدا الحديد الفوسفات (٧٠٠ ألف طن) كما توجد معادن أخرى مثل القصدير والرصاص والفحم والمنجنيز ويستخرج من جبل جيتارا الواقع على مسافة ١٥٠ كيلو مترا جنوبى كولومب بشار ، ويقدر الاحتياطى منه بنحو ٩٠٠ ألف طن ، وتبلغ نسبة المعدن ٤٦٪ ، كما يتضمن الخام نسبة عالية من الزرنيخ .

تحتل زراعة الكروم عشر المساحة المزروعة فى الجزائر (حوالى ٣٥٠,٠٠٠ فدان) ، وهى تمثل ثلث الإنتاج الزراعى الكامل ، كما تدر الموالح ما قيمته ٧٥ مليار فرنك .

وتنتج الجزائر مقادير هائلة من التمر ، وقد تم إنشاء مصنع لتجفيف

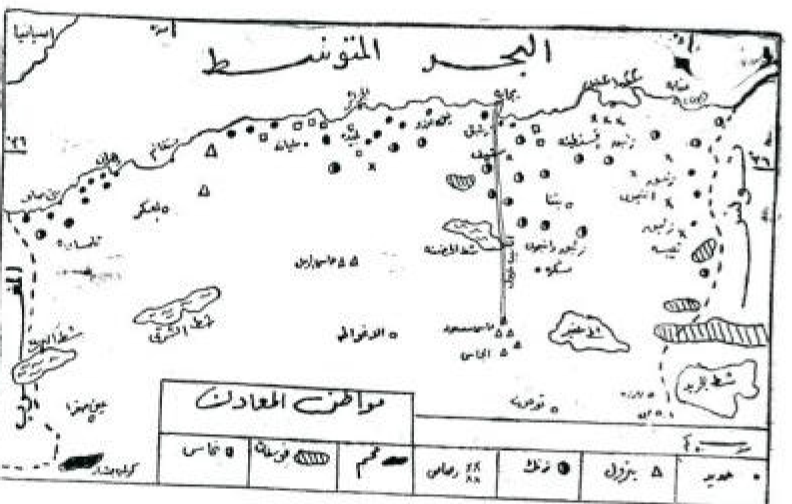
التمر فى الصحراء وقد بدأ إنتاجه فى سنة ١٩٦٥ .

ويبلغ إنتاج الجزائر من القمح والشعير ٢٠ مليون طن فى السنة ، كما يكلل الزيتون هامات الجبال ويستعمل زيته بدلا من السمن فى الطعام .

والجزائر ثانى دولة فى العالم إنتاجا للبلوط والفلين الذى أحرق الاستعمار ٦٠٪ من غاباته فى الشمال من قسنطينة .

والحلفا سلعة تصدر للخارج بكميات هائلة كذلك الخروب واللوز والصنوبر الذى يغطى منطقة الأطلس الصحراوى . وقد نجحت زراعة القطن والأرز .

ويوجد البترول فى الجزائر ، وفى سنة ١٩٤٦ تأسست شركة سنربال للبحث عن البترول فى الصحراء الكبرى . وفى سنة ١٩٤٧ اتفقت مع الشركة الفرنسية للبترول على التعاون فى هذا المجال فى المنطقة التى كانت واقعة تحت النفوذ الفرنسى ، ثم تعاونتا بعد صدور قانون البترول الصحراوى فى سنة ١٩٥١ ، فوفقتا إلى اكتشاف حقل حاسى مسعود ، ثم حقلى عجلة وتقفطرين فى سنة ١٩٥٦ ، وحقل زارزيتين فى سنة ١٩٥٨ . كما تم اكتشاف حقول للغاز الطبيعى فى حاسى رمل ، وحاسى طوارق .



البحر المتوسط
إسبانيا
مواطن المعادن
حديد
بترول
زنك
رصاص
فحم
فوسفات
نحاس

ويقدر احتياطي البترول الخام بنحو ٨٤٦ مليون طن ، ومن الغاز الطبيعي ٢٠٠٠ مليون متر مكعب ، و٤٠٠ مليون من الغاز المكثف .

وكانت المشكلة التي حدثت من التوسع في إنتاج البترول في مبدأ الأمر عدم وجود وسائل كافية لنقله إلى موانئ التصدير ، ثم بدأ في إنشاء عدد من خطوط الأنابيب ، فهناك خط إلى ميناء عين الكبيرة للتصدير وإمداد معمل التكرير في الجزائر ، وخط إلى ميناء الصخيرة في تونس . فضلا عن خط لنقل الغاز إلى معمل أرزو القريبة من وهران ، وإلى مصانع الصلب قرب عنابة وإلى مدينة الجزائر . وثمة خط ينقل الغاز المكثف من حقل حاسي رمل إلى شبكة خطوط حاسي مسعود (١) .

وفي سبتمبر ١٩٦٥ وقعت اتفاقية بين الجزائر وفرنسا حول استغلال البترول والغاز الجزائريين .

وتنص الاتفاقية . على أن تدفع الجزائر مبلغ ١٥٠ مليون فرنك (حوالي ١٠ ملايين جنيه استرليني) ثمناً لـ ٤٩,٩ ٪ أسهم شركة س. ن. ريبال للبترول وبذلك تكون مالكة لنصف الشركة .

وتتضمن الاتفاقية أيضا مبدأ ، المشاركة التعاونية ، التي تربط

(١) الدكتور راشد البراوي ، اقتصاديات العالم العربي ص ٣٢٤ .

لأول مرة بين دولتين مستقلتين فى ميدان استغلال البترول . ويشمل هذا التعاون المشترك استغلال مساحة تزيد على ١٨٠ ألف كيلو متر فى الصحراء الكبرى خلال الخمسين سنة القادمة .

وتنص الاتفاقية أيضا على أن تقدم فرنسا للجزائر مشروعات خلال السنوات القادمة ، وعلى أن تقدم لها قرضا قيمته ٨٠٠ مليون فرنك (حوالى ٥٦ مليون جنيه استرليني) يسدد على ٢٠ سنة بفائدة قدرها ٣٪ سنويا ، كما وافقت فرنسا على فتح اعتمادات تصدير سنويا قيمة كل منها ٢٠٠ مليون فرنك (حوالى ١٤ مليون جنيه استرليني) لمدة خمس سنوات .

ومن نصوص الاتفاقية أيضا تمييز الحكومة الجزائرية باعتبارها أولى الدول صاحبة الحق فى الحصول على الغاز الطبيعي المستخرج من أرض الجزائر وإنشاء شركة لمزاولة كل المسائل اللازمة لتصدير الغاز إلى مصانع التكرير الفرنسية والمسائل الخاصة بشحنه .

وسيكون للجزائر الحق فى الحصول على حاجتها من الغاز الطبيعي قبل تصدير أية كمية منه . إن هذه الاتفاقية تحقق ثورة فى عالم الاتفاقات البترولية ، وتبرز هذه الحقيقة فى ثلاث نقاط رئيسية :

١ — أنه لأول مرة ، يجرى بين دولتين ، لا بين دولة تملك المادة

الخام وشركات تستغلها وتخضعها لشروط الاحتكارات العالميــة ومؤامراتها .

٢ — أن الجزائر ، بواسطته تنقلب إلى شريك يسهم فى كل مراحل الإنتاج والتكرير والنقل والتسويق .

٣ — أنه لا يكتفى بإعطاء الجزائر نسبة من الأرباح تحطم قاعدة المناصفة الشكلية المعروفة . بل يحتم على فرنسا أن تستخدم جانبا كبيراً من أرباحها فيه فى الأرض الجزائرية نفسها لتصنيعها وفقاً لسياسة الجزائر ولمتطلبات نموها الاقتصادى .

وإذا كان — هذا الاتفاق الجزائرى الفرنسى يسمح باستمرار الامتيازات الممنوحة سابقا ، ومدتها خمسون سنة ، فهو فى الواقع يزيد موارد الجزائر بنسبة كبيرة منها ويجعلها شريكة فيها .

- فهو أولا يحسب نصيب الجزائر المفروض كضريبة على أساس سعر متفق عليه ، وهو فى الوقت نفسه أعلى كثيرا من أسعار السوق (٢,٠٨ دولار للبرميل) وثابت لا يخضع للتقلبات .
- وهو يلغى ما كان للشركات البترولية الفرنسية من حق تأجيل دفع ضريبة الأرباح لمدة خمس سنوات .

• وهو أخيراً يلغي قاعدة المناصفة . فيجعل الضريبة ٥٣ ٪ للسنوات ١٩٦٥ — ١٩٦٧ ، و ٥٤ ٪ لسنة ١٩٦٨ ، و ٥٥ ٪ ابتداء من ١٩٦٩ .

وهذا بالاضافة إلى ما سنرى من واجبات أخرى مفروضة على الحكومة الفرنسية .

ويعيد الاتفاق إلى حكومة الجزائر نصف أسهم الشركة الوطنية الفرنسية للجزائر (ريبال) ، بنفس أسعار سنة ١٩٥٨ ، وبذلك تصبح الجزائر مالكة مطلقة لمصفاة مدينة الجزائر الضخمة . وتدفع قيمة هذه الحصة تدريجياً على شكل بترول خام .

أما بالنسبة للامتيازات الجديدة ، ولاسيما فى (حوض برقاوى) ذى المخزون الوفير ، فلن يكون هناك إمتياز بالمعنى المعروف ، ولكن تتألف شركة تعاونية بين الجزائر وبين الشركة صاحبة ترخيص الاستكشاف ، بحيث يكون للجزائر نصف هذه الشركة دون أن تدفع لقاءه إلا توسيع حدود الرخصة إلى الآبار الممتدة فى جنوبها ، ويقوم كل من الشريكين بعمليات الاستغلال الفعلى فى الحوض . ويدفع الطرف الفرنسى سلفة للجزائر تعادل ٦٠ ٪ من نصيبها فى النفقات ، يستردها تدريجياً . خطوة فخطوة مع ما يمكن أن يتم من اكتشاف

آبار جديدة . ويكون لكل من الشريكين حق التصرف في نصيبه من الانتاج ، بعد أن يدفع الشريك الفرنسي الضريبة على حصته بمعدل ٥٥٪ من السعر المتفق عليه .

أما الفائض من البترول لدى الجزائر فهي حرة تبيعه لمن تشاء ، ولكن الشريك الفرنسي لا يستطيع رفض شرائه - إذا طلبت الجزائر ذلك - بالأسعار التجارية التي يحصل عليها هو نفسه من بيع نصيبه .

أما فيما يتعلق بالغاز فنظام الامتيازات القائم حالياً لن يتغير على الصعيد الحقوقي والضريبي ، ولكن الشركات صاحبة الإمتياز سيكون عليها أن تقدم للجزائر كل الكميات التي تطلبها من الغاز بأسعار التكلفة فحسب ، وهذا عملياً سيؤول إلى منح الأرباح كلها إلى الجزائر ، إلا فيما يتصل بتصدير الغاز إلى فرنسا فتقوم به شركة مختلطة تتقاسم الأرباح الناتجة عن الفرق بين سعر التكلفة (بما فيه الفائدة على رؤوس الأموال طبعاً) وبين سعر المبيع في الأسواق العالمية .

وسواء فيما يتصل بالغاز أو بالبترول فإن الشركات الفرنسية ستكون ملزمة بإعادة استثمار نصف أرباحها في الجزائر نفسها ، وهذا يعني أنها لن تستطيع إخراج هذه الأرباح لاستغلالها في مناطق أخرى من العالم بينما الجزائر محتاجة إلى تصنيع نفسها ، وتضاف

هذه الاستثمارات إلى القروض والمساعدات التى تعهدت الحكومة الفرنسية بتقديمها للجزائر ، والتى تتألف من ٤٠٠ مليون فرنك (٨٠ مليون دولار) على شكل مساعدة لبناء صناعة البترول الجزائرى و ٢٠٠ مليون فرنك (٤٠ مليون دولار) قرضاً يسهم فى التطوير الصناعى للجزائر خلال الخمس سنوات القادمة وفق برامج يتفق عليها و ٢٠٠ مليون فرنك أخرى للمدة نفسها على شكل اعتمادات مالية للتصدير ، وفى سنة ١٩٦٩ قررت الجزائر أمر شركات البترول المنتجة لديها برفع أسعارها المعلنة إلى ٢,٦٥ دولار للبرميل ، أى بالعودة إلى أسعار ١٩٦٢ . وهذا يشمل الشركات الفرنسية وغير الفرنسية على السواء .

وقد ورد هذا الأمر فى رسائل وجهت إلى الشركات تقول : إن الجزائر قامت بدراسات دقيقة انتهت منها إلى أن القيمة الحقيقية لنفطها هى ٢,٦٥ دولار على الأقل للبرميل ..

ويقدر إنتاج الجزائر من البترول بحوالى ٤٠ مليون طن سنويا ، تدر دخلا يقدر بنحو ٢٠٠ مليون من الدولارات .

* * *

كانت طبقة « الكولون » هى حجر الزاوية فى صرح الاستغلال

الاستعماري للجزائر ، الذي صمم على امتصاص الجزائر واستغلالها بطريقتين :

الأول — السيطرة على السوق الداخلية .

الثاني — تصدير رءوس الأموال .

وبدأت السيطرة على السوق الداخليه منذ الأيام الأولى للإحتلال وقد تمت عن طريق الوحدة الجمركية مع الجزائر ، وعن طريق احتكار النقل البحري . وكانت النتيجة الحتمية لذلك تحطيم الصناعات الحرفية الوطنية وتوجيه الإنتاج الزراعي إلى تصدير المحصولات التجارية للسوق الفرنسية ، أما تصدير رءوس الأموال ، فقد أمتد الى كل أنواع النشاط الاقتصادي الزراعي ، والتجاري والنقل ، فأنشئت المصارف والصناعات الاستخراجية كمناجم الحديد والفوسفات وغيرها .

ومنذ بدء الإحتلال فتحت السوق الجزائرية لمنتجات الصناعة الفرنسية ، وكانت أول نتائج السيطرة على السوق هي تحطيم الصناعات الوطنية التي كانت في سنة ١٨٣٠ صناعة مزدهرة ، تقوم بسد حاجات الشعب المختلفة من منسوجات وملابس وأدوات وأسلحة .

وعن طريق احتكار النقل البحري ، بيعت المصنوعات الفرنسية في الجزائر بأثمان زهيدة ، وعن طريق الاتحاد الجمركي حرمت الجزائر من إقامة حماية جمركية لصناعاتها .

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هى التطبيق الكامل لقانون المنافسة فى السوق الحرة فلم تستطع الصناعات الحرفية منافسة الصناعة الآلية الحديثة لا فى الجودة ولا فى السعر .

وقضى على الصناعات الحرفية بالجزائر ، كما قضى على كل أمل فى تقدم الصناعة الجزائرية ، وليست المنافسة وحدها هى سبب القضاء على الصناعة الوطنية ، بل هناك أسباب أخرى ، فإن النظام الاستعمارى فى مجموعة يخدم بعضه بعضا ، ويتآزر فى العمل للوصول إلى النتائج التى يريدها .

فليس من شك أن طرد الفلاحين من الأرض وما صحبه من انحدارهم إلى درك المسغبة ساعد فى القضاء على الصناعة الجزائرية لأنه قضى على القوة الشرائية للعملاء الجزائريين .

وعن طريق السيطرة على السوق استطاعت الشركات الاحتكارية الفرنسية أن تحارب أية محاولة فى الجزائر لإنشاء صناعة حديثة يمكن أن تنافس الصناعات الفرنسية ، فقد تحكمت الشركات الفرنسية ـ عن طريق احتكار النقل البحرى ـ فى أسعار الواردات وأسعار الصادرات .

ثم إن الاتحاد الجمركى يؤمن الشركات الصناعية الفرنسية ضد أية منافسة جزائرية ، ومن ذلك أنه فى خلال الحرب العالمية الثانية ،

انفصلت الجزائر عن فرنسا بسبب الاحتلال الألمانى ، فأقيم فى الجزائر مصنع كبير للنسيج ، ما لبث أن أغلق بعد الحرب بفعل سياسة الإغراق التى تتبعها شركات الإحتكار الفرنسية .

وترتب على هذا الإحتكار أن ٧٠٪ من صادرات الجزائر تذهب إلى فرنسا ، وأن ٧٣ ٪ من واردات الجزائر تستورد من فرنسا .

وتوجه الثورة الجزائرية اهتماما كبيرا . وعناية فائقة إلى التصنيع ، والظروف موائية أمام التوسع الصناعى فى المستقبل وذلك لأسباب عدة أهمها :

١ — وفرة الأيدى العاملة .

٢ — الخطط الموضوعة لدفع عجلة التنمية الزراعيه وبخاصة فى مجال إنتاج الغلات الزراعية اللازمة للصناعات المختلفة .

٣ — وفرة الثروة المعدنية مثل الحديد والرصاص والزنك والمنجنيز والفوسفات ، وهذه يمكن تصنيعها بدلا من تصديرها على هيئة خامات .

٤ — الأخذ بالأسلوب الاشتراكى حيث أن سيطرة الدولة على أدوات الإنتاج تجعل فى إمكانها توجيه الإقتصاد القومى نحو النواحى

التى تراها ضرورية لدعمه ، مع الاهتمام بالصناعات التى تعتبر أساسية بالنسبة للبلاد .

ومن الصناعات التى تعمل حكومة الثورة فى الجزائر على دعمها أو إنشائها :

صناعة الغزل والنسيج ، ومصنع الصلب فى عنابة ، وعمل الآلات المعدنية التى يشتد عليها الطلب مثل الجرارات والسيارات واللوريات ، والصناعات الغذائية وبخاصة حفظ وتعبئة الفواكه والخضر لأغراض التصدير ، والصناعات الكيماوية التى تعتمد على بعض المعادن كالفوسفات بسبب الحاجة المتزايدة إليه فى الزراعة ، أو على البترول والغاز الطبيعى بعد أن ثبت توافرهما .

وفى سنة ١٩٦٦ تم تأميم ١١ منجماً للمعادن فى الجزائر ، لأن الجهود المبذولة للتصنيع يجب أن تعتمد فى المحل الأول على استغلال موارد البلاد الأولية وبشكل خاص مواردها المعدنية .

فالثروات الباطنية التى تشكل العنصر الأساسى لأى تطور إقتصادى ، كانت فى يد الشركات الأجنبية ، وبيد الاحتكارات التى كانت تحدد حسبما ترى ، أحجام الإنتاج والأسعار ، وإن تأميم صناعة التعدين يتمشى مع سياسة الثورة التى تستهدف سيطرة الشعب على جميع مصادر

الثروة فى البلاد . وقد اعتبرت العقارات التى هجرها أصحابها فى مناطق المناجم المؤممة ملكا للدولة . وتبلغ القيمة الإجمالية لهذه العقارات ١٠ مليار فرنك .

والشركات الأجنبية التى مستها هذه التأميمات هى شركة ويترا الفرنسية ، وفيي مونتانى ، وبناردبا ، وموكتا ، وأكثر المناجم التى أممت أهمية هما منجمى جبل ونزا ، وبو خضرة من ممتلكات شركة ويترا التى تستحوذ على أربعة أخماس مناجم الحديد الجزائرية وتنتج حوالى ٣ ملايين طن سنويا . أما الشركات الثلاث الأخرى ، فلم تمسها التأميمات بنفس القدر ، ليس فقط لأن مناجمها المؤممة أقل أهمية ، وإنما أيضاً لأن أغلب أعمالها خارج الجزائر . فشركة فيي مونتانى مسها تأميم منجم الرصاص والزنك فى وادى سيس . وبناردبا مسها تأميم منجم الرصاص والزنك فى سيدى كمبر وعين البربر ، وموكتا مسها تأميم شركة حديد خانجيه .

وفى سنة ١٩٦٩ أصدرت الحكومة الجزائرية قانوناً تحتكر الدولة بموجبه عن طريق « الشركة الوطنية للإنشاءات الميكانيكية » . استيراد المنتجات الميكانيكية الرئيسية . من جرارات ومحركات وآلات زراعية ومضخات ومعدات للأشغال العامة ولعمليات البترول وقطع الغيار اللازمة لها .

وهكذا يكتمل عملياً تأميم كافة التجارة الخارجية الجزائرية ، باستثناء قطاع ثانوى لا يدخل ضمن القطاع العام ، ولكن استيراده يظل خاضعاً للاشراف الحكومى ، مثل الكاوتشوك وبعض السلع الغذائية وبعض المعدات الكهربائية ...

كما أممت كافة مصادر الدخل القومى فى الجزائر كالشركات ، والبنوك ، وغيرها .

وفى يوليو سنة ١٩٦٩ ، افتتح مصنع الحديد والصلب . وهو حجر الزاوية فى الثورة الصناعية ، وتثبت به الجزائر بنائها الاقتصادى ، وتدعم مسيرتها نحو إقامة مجتمع اشتراكى عادل .

ولا شك فى أن مهمة مصنع الحديد والصلب بالدرجة الأولى هى تغطية احتياجات السوق المحلية بما تحتاج إليه من مادة الفولاذ ذات الأشكال المختلفة ، ومساعدة القطاعات المختلفة على النمو ، مثل القطاع الزراعى والصناعى وغيرهما . وسيغذى المصنع أيضا بانتاجه مؤسسات صناعية قائمة ، تعتمد حتى الآن على أستيراد ما تحتاج إليه من مواد حديدية مثل :

— مصنع وهران المعدنى المتخصص فى صناعة الحديد المستدير للأسمنت المسلح ونوع من الشباك المرصص ، والمسامير ، وقد بلغ انتاجه فى عام ١٩٦٨ من :

الفولاذ : حوالى ٢٧ ألف طن ، الصفائح : حوالى ٣٠ ألف طن .

— مصنع الأنابيب والآلات الميكانيكية – برغاية – الذى بلغ إنتاجه فى سنة ١٩٦٨ — ١٢٧٠٠ طن.

— ومصنع الصناديق المعدنية بقسنطينة الذى ينتج علب عصير الفواكه والدلاء والبراميل ، وقد بلغ إنتاجه فى عام ١٩٦٨ — ١٥,٠٠٠ طن من العلب والدلاء .

وكذلك الصناعات الأخرى التى ستقام فيما بعد . وقد أصبح قطاع الوقود من الآن مستفيداً ومغذى من هذا المصنع ، حيث شرعت الوحدة الخاصة بصنع أنابيب الغاز والبترول فيه ، بإنتاج الأنابيب لحساب هذا القطاع والتى ستستخدم فى بناء الخط الذى يربط بين حوض الحمراء وسكيكدة ، والذى يبلغ طوله حوالى ٥٠٠ كيلو متر . وقد شرع فى العمل بالمصنع فى ١٧ أبريل سنة ١٩٦٦ وسيبلغ إنتاجه فى المرحلة الأولى ٤٠٠ ألف طن من الفولاذ المصفح الملفوف أو السميك ، أما فى المرحلة النهائية ، وعندما يعمل المصنع بكامل طاقته الإنتاجية ، فإن الإنتاج سيرتفع إلى حوالى ١,٣٠٠,٠٠٠ طن سنويا .

وهناك عدة مجموعات صناعية فى طريقها إلى التنفيذ مثل : الورشة البحرية لبناء السفن ، ومصنع للقنوات ، ومصنع لقطع الغيار ، ومركبين

ميكانيكيين فى وهران والمدية ، ومصنع لسيارات النقل فى الجزائر العاصمة ، ومصنع لسيارات سياحية فى وهران ، ومصنع لصنع الآلات الميكانيكية فى قسنطينة ، ومصنع لصنع المضخات فى المدية ، ومصنع للتجهيز الزراعى فى سيدى بلعباس ، والتجهيز الكهربائى فى تيزى وزو ، ولصنع البطاريات والمجمعات الكهربائية فى سطيف ، وعدة وحدات صناعية أخرى فى مختلف أنحاء الجزائر .

الفصل السابع

نحـو مستقبل أفضـل

من أجل حياة أفضل ، كان من الطبيعى أن يتحرر الإنسان الجزائرى من الاستغلال ، ومن كل مايعوق مسيرته لبناء مجتمعه من جديد وفق أمانيه ..

ولذلك اتجهت الثورة إلى تحرير الاقتصاد الجزائرى من التبعية الشديدة التى فرضت عليه فى ظل الاستعمار الفرنسى ، وعمدت إلى تحقيق سيطرة المجتمع على أدوات الإنتاج بخلق قطاع عام قوى وقادر على أن يتحمل المسئولية ويدفع بعجلة التنمية الاقتصادية إلى الأمام ويستثمر موارد البلاد الطبيعية والمادية وطاقاتها البشريه . تطبيقاً للفلسفة الاشتراكية التى آمن بها الشعب كطريق للتقدم والرقى . .

إن الزراعة عصب الحياة فى الجزائر .. حيث يعيش أربعة أخماس سكانها من الأرض وحـــدها ، وحيث كان الفلاحون الضحايا الأولى للاستعمار ، وقد شاركوا بكل طاقاتهم وإمكانياتهم فى حرب التحرير الوطنى ، وهم يشكلون اليوم الدعامة الأولى لبناء مجتمع اشتراكى جديد .

ولذلك فإن الثورة الزراعية تمثل مكان الصدارة من ثورة الجزائر من أجل تشييد جزائر اشتراكية .

وهى تنطلق من المبادىء الرئيسية التى تستمد منها الثورة أعمالها ،

وتسير على ضوئها ، ولذلك فهى تقضى بتأميم وتحديد الملكية وإسناد مهمة التسيير الاقتصادى والاجتماعى فى البلاد للمنتجين الحقيقيين ، أى الفلاحين والعمال .

إن الثورة تحمل فى طياتها ثلاث مراحل ، منها المرحلتان الأوليتان اللتان تمثلتا فى حصول العمال بأنفسهم على الأملاك الشاغرة للاستعمار أولا ، ثم فى حصولهم على مجموع الأملاك الأخرى التى كانت فى حوزة المعمرين ثانيا ، وقد مكنت هاتان المرحلتان فى وقت واحد من تحقيق هدفين : هدف وطنى ، إذ أنه لا يمكن على الإطلاق أن تترك أخصب الأراضى بين أيدى الأجانب الذين امتلكوها ، بوصفهم محتلين ، بطريقة غير شرعية ، وهدف إجتماعى إذ أن عامل الأرض قد انتقل بفضل التسيير الذاتى ، إلى صف المنتج المستقل المسؤول ، وأصبح يجنى ثمار عمله ومبادرته الشخصية كاملا .

أما المرحلة الثالثة للثورة الزراعيـــة فإنها تستهدف القضاء على اللامساواة فى نظام ملكيات المواطنين ، وذلك لكى يتسنى الغاء إستغلال العمال وإتاحة الظروف الملائمة لتعميم الاستغلال الجماعى للأرض .

والقضية الزراعية هى قضية ملكية الأرض وكيفية إستغلالها ،

وما هي إلا مظهر من مظاهر مشكلة الزراعة الواسعة في ميدان إقتصاد البلاد ، أي مشكلة الإنتاج والتمويل والتسويق . . . الخ في القطاع الزراعي .

كانت الجزائر — قبل الاستقلال ـ تشتمل على :

— ١٠,٠٠٠,٠٠٠ هكتار[1] ، ملكية خاصة .

— ٢,٥٠ , ٠٠ هكتار ، أراضي « عروشية » .

— ٩,٥٠٠,٠٠٠ هكتار ، أراضي تابعة لأشخاص معتبرين من أشخاص القانون العام .

والجدول التالي يبين توزيع الملكية في الجزائر ـ قبل الاستقلال ـ

(١) الهكتار ٢١/٥ فدان .

	عـــدد المشتغلين			المساحة الكاملة بآلاف الهكتارات		
	جزائريون	أجانب	مجموع	جزائريون	أجانب	مجموع
أقل من هكتار	١٠٥,٩٥٤	٢,٣٩٣	١٠٨,٣٤٧	٣٧,٢	٠,٨	٣٢
من ١ الى ١٥ «	٢٢٩,٥٢٩	٥,٠٣٩	٢٣٧,٥٦٨	١,٣٤١,٢	٢١,٨	١,٣٦٣
من ١٠ الى ٥٠ «	١٦٧,١٧٠	٥,٥٨٥	١٧٢,٧٥٥	٣,١٨٥,٨	١٣٥,٣	٣,٣٢١,١
من ٥٠ الى ١٠٠«	١٢,٥٨٠	٣,٦٣٥	١٩,٣١٥	١,٠٩٦,١	١٨٦,٩	١٢٨٣
أكثر من ١٠٠ «	٨,٤٩٩	٦,٢٨٥	١٤,٨٤٤	١,٦٨٨,٨	٢,٣٨ ,٩	٤,٠٧٠,٧
المجموع	٦٣٠,٧٣٢	٢٢,٠٢٧	٦٥٢,٧٦٩	٧,٩٤٣,١	٢,٧٢٦,٧	١٠,٠٧٥,٨

إن هذه الاحصائية تبين الصورة القائمة التي كانت عليها ملكية الأرض ، فبينما كان الجزائريون لا يملكون إلا حوالى ١١ هكتاراً كمتوسط للملكية الواحدة ، كان المعمرون يملكون ١٢٤ هكتاراً . وزيادة على ذلك ، كانت أخصب وأجود الأراضي في أيدي المعمرين .

وقد بدأ اغتصاب المستعمر للأرض بقرار ٨ من سبتمبر سنة ١٨٣٠ ، فبرغم الوعد الذي قطعه على نفسه القائد العام الفرنسي بأن يحترم ملكية السكان ، صادر لحساب الدولة الجديدة ملكية الأتراك وملكية الأوقاف .

وتبدو خطورة هذا القرار إذا عرفنا أن جزءاً كبيراً من الملكية العقارية كان موقوفاً ، فمصادرته حققت للاستعمار الفرنسي هدفين ، أولهما أنه استولى على جانب كبير من الأرض ، والآخر أنه حرم الخدمات الدينية والخيرية مصادرها وأخضعها لسيطرته المباشرة .

ولم يجد الاستعمار صعوبة في تسويغ عملية المصادرة فعمد إلى تفسير ملتو لحجج الوقف التي تقضى بأن الملك يئول في النهاية إلى الخيرات فقال : إن الدولة هي القيمة على الخيرات ، ومن ثم فيجب أن تئول إليها الملكية .

واستمر الاستعمار بعد ذلك تحت ستار تحديد الملك العام أو

الدومين فى سرقة الأراضى من شعب الجزائر ، وكانت الخطوة الثانية هى أصدار قانون فى الأول من أكتوبر سنة ١٨٤٤ يقضى بمصادرة أراضى العرش لمصلحة الدولة .

وتتابعت القوانين التى تزيد ملكية الدولة توسعا فصدر قانون سنة ١٨٤٦ يحدد أن كل الأراضى غير المبينة والتى لا يمكن إقامة دليل على ملكيتها قبل أول يوليو سنة ١٨٣٠ تنتقل إلى ملك الدولة !

وهكذا وبقرار بسيط انتقلت ملكية مقاطعات بأكملها من أجود أراضى الجزائر إلى ملك الدولة الاستعمارية !

وفى سنة ١٨٥١ صدر قانون يعلن ملكية الدولة لـ ٢٠٠,٠٠٠ هكتار من الغابات ولـ ٦١,٠٠٠ هكتار من أراضى العرش .

وسيطرت الدولة على مصير ٧٠٠,٠٠٠ شخص عن طريق الغابات ويكفى أن نذكر أن غلة الغابات كانت تبلغ فى وقت ما حوالى ٤٠٠,٠٠٠ فرنك ولكن دخل الدولة من الغابات عن طريق الغرامات ومحاضر المخالفات كان يبلغ حوالى مليون ونصف مليون من الفرنكات .

ولم يكتف الاستعمار بالمصادرات السابقة ، فقد كانت لا تزال هناك مساحات كبيرة من الأرض فى أيدى الجزائريين ، فاكتشف الاستعمار لها لونا جديداً من السرقة عرف بسياسة تحديد ملكية القبائل .

وجوهر هذه السياسة أن على الاستعمار واجبا لا مناص منه ، هو نشر السلام والأمن بين ربوع الجزائر ، وليس ثمة شك في أن عدم تحديد الأرض المملوكة لكل قبيلة على وجه التحديد من أهم الأسباب في إثارة المنازعات والحروب بين القبائل ، وعلى ذلك وجب لحفظ السلام أن تحدد ملكية القبائل .

ولم يكن هذا الرأى صحيحا على إطلاقه ، بل كان الهدف هو محاولة حصر ملكية كل قبيلة ، باعتبار أن هذا هو الوسيلة الوحيدة لخلق آلاف المنازعات بين القبائل .

فقامت منازعات كبيرة بين القبائل وتكونت سنة ١٨٥١ لجنة عرفت باسم لجنة الصفقات ، استمرت تعمل ثلاثة عشر عاما بالجزائر ، وكان من الطبيعى أن يثور النزاع على قطع كثيرة من الأرض ، ويتعذر إثبات الملكية ، وكان من الطبيعى أيضا أن تعرض اللجنة — كلما حزب الأمر — بيع الأراضى حسما للنزاع على الفرنسيين من الكولون ، بثمن بخس ، إلى أن أصدر الأمبراطور نابليون الثالث فى سنة ١٨٦٣ قانونا يقضى بأن أرض القبائل ملك القبائل .

وكان لابد لتطبيق القانون من فرز ملكية القبائل عن الأملاك العامة ، فتكونت لجنة لمسح الأرض ، واختار الدومين العام أجود

الأرض الموجودة وعزل بين الأرض المزروعة وبين الأرض المشاعة التي اعتبرت ملكا للدولة ، وهكذا وجد الفلاحون الجزائريون أن الأراضي الباقية تحت أيديهم بعد هذا التحديد لا تصلح للاستغلال الاقتصادي بأية حال .

وفي سنة ١٨٧٣ صدر قانون يقضي « بتحويل الملكيات الكبيرة غير المقسمة إلى مربعات صغيرة جداً من الأملاك الفردية » .

وفي سنة ١٨٩٧ تقرر جواز الملكية «للدبونية» . وبذلك استقر نظام الملكية على الوجه الذي يرضاه الاستعمار فبلغت ملكية الدولة يومئذ ١١ مليون هكتار .

ففي سنة ١٨٥٨ حصلت شركة الجنفواز على ١٢ ألف هكتار من الأراضي في مقابل تعهدها بإسكان ٥٠٠ من السويسريين .

وفي سنة ١٨٦٧ حصلت الشركة العامة للجزائر على أراض تبلغ نحو ١٠٠,٠٠٠ هكتار وكان ذلك كضمان لقرض بمبلغ ١٠٠ مليون فرنك في مقابل أن تصرف ١٠٠ مليون فرنك على إصلاحات زراعية ، بيد أنها لم تقرض بالفعل إلا ٨٧ مليون فرنك ، ولم تصرف على الاصلاحات إلا عشر المبلغ المطلوب .

وفى الوقت نفسه وزعت ١٦٠,٠٠٠ هكتار من أراضى العقارات على ٣ رأسماليا .

وحصلت شركة الهابرا والمقطع على ٢٥ ألف هكتار من الغابات فى مقابل بناء سد فى وادى السابح وإصلاحات أخرى ، ولكن هذا السد انهار عقب بنائه ، وظلت مع ذلك ملكية الأرض للشركة .

وقد نتج عن تدفق رءوس الأموال الفرنسية تركيز الملكيات الكبيرة فى أيدى قلة من الأجانب وتفتيت الملكيات الصغيرة .

وكان لتركيز الملكيات أسباب عدة : منها ، أن الاستعمار قام بدور إيجابى وهام فى هذا الشأن ، فمنح الشركات الرأسمالية وعدداً من كبار « الكولون » مساحات واسعة من الأرض ، ثم أتاح لهؤلاء الملاك الكبار فرصة شراء أراضى الفلاحين الجزائريين بثمن بخس ، ثم عمد مرة أخرى إلى تفضيل الملاك الكبار عند توزيع الأرض .

ويبدو تركيز الملكيات من الاحصائيات التالية : (فى سنة ١٩٤٠) :

٢٥,٠٠٠ أوربى يملكون ٢,٧٢٠,٠٠ هكتار

٥٣٢,٠٠٠ مسلم يملكون ٧,٦٧٢,٠٠٠ هكتار

لذلك كان من المحتم على ثورة الجزائر أن تصحح هذا الوضع ، فصدر مرسوم أكتوبر سنة ١٩٦٠ الخاص بوضعية الأملاك الشاغرة ،

ثم نظمت كيفية إستغلالها بقرارات مارس ١٩٦٣ التى تم بمقتضاها إنشاء إقتصاد مسير ذاتيا فى حدود آفاق إجتماعية ، وأحلا له محل النظام الرأسمالى السابق .

وأخيراً ، تم بمقتضى المرسوم الصادر فى أول اكتوبر سنة ١٩٦٣ تأميم جميع المستثمرات التابعة للمعمرين وإدراجها فى نظام التسيير الذاتى .

وقد مكنت هذه الإجراءات الشعب الجزائرى من استرجاع أراضيه كاملة ، هذه الأراضى التى حرمه منها مؤقتاً الدخيل المحتل .

وعلى ذلك فإن المشكل الزراعى الجزائرى وجد حلا كاملا وجذريا فيما يخص ملكية الأرض من طرف الأجانب : فلا يوجد اليوم أصحاب أملاك أجانب فى الجزائر .

- تم تسليم العمال مايقرب من مليون هكتار من الأراضى الشاغرة وإدخالها فى نظام التسيير الذاتى .
- تم وضع ٢ مليون هكتار ، كان يستغلها المعمرون بين أيدى العمال وإدخالها فى نطاق التسيير الذاتى أيضا .
- منذ صيف ١٩٦٢ حتى خريف ١٩٦٣ ، استرجع الشعب مايقرب من ٧٠٠,٠٠٠ هكتار كان يستغلها المستعمر (وبعض المواطنين

المتهمين بالخيانة أو بالمضاربة) وقد وضعت هذه الأراضى تحت تصرف العمال أنفسهم فى نطاق التسيير الذاتى .

ويتبين لنا ، التوزيع الاجمالى للأراضى بالصورة التالية :

— ٧٢٠٠,٠٠٠ هكتار ، ملكية خاصة .

— ٢٢٠٠,٠٠٠ هكتار ، أراضى مؤممة ومستغلة فى اطار التسيير الذاتى

— ٢٥٠٠,٠٠٠ هكتار ، أراضى عروشية .

— ٩٥٠٠,٠٠٠ هكتار ، أراضى تابعة للدولة .

إن الإصلاح الزراعى فى الجزائر يستهدف كما يقول ميثاق الجزائر الفقرة ٢ الفصل ٢ من القسم الثانى :

« إن الإصلاح الزراعى يجب أن ينظر بعين الاعتبار إلى طموح الفلاحين إلى الأراضى التى حرموا منها زمناً طويلا » .

وما جاء فى لائحة اللجنة المركزية للحزب فى شهر يونيو ١٩٦٤ :

[. . . وبناء على ذلك فإن القانون الذى ينص على الاصلاح الزراعى يجب أن يتضمن الخاصيات التالية :

١ — ألا يتعلق إلا بالملكية العقارية الكبيرة وينص على التعويض .

٢ — ينبغى أن يحترم الملكية الصغيرة والمتوسطة وكذلك المواشى وأراضى المرعى] .

فالإصلاح الزراعى يهدف فى البداية إلى سحق اللامساواة التى لاتزال قائمة فى نظام توزيع الملكية .

ثم يشرع فى إلغاء الملكية الكبيرة ، بوصفها كبيرة ، عن طريق تحديد مساحة الملكية العقارية . .

إن الإصلاح الزراعى هو حجر الزاوية فى بناء النظام الاشتراكى فى الجزائر . . فسبعة ملايين زارع ومليون أسرة زراعية — هم الذين يشكلون أساس الأمة .

وقد قام الإصلاح الزراعى فى الجزائر على أساس مبدأ قويم هو :

— الأرض لمن يزرعها .

وعلى المبادىء التالية :

١ — الحظر الفورى على التصرف فى الأراضى وفى وسائل الإنتاج الزراعى .

٢ — تحديد الملكية وفقاً لأنواع الزراعة والمحاصيل .

٣ — نزع ملكية المساحات التى تتجاوز النصاب الأقصى المحدد .

٤ — التنازل مجاناً عن الأرض المستولى عليها للفلاحين المعدمين أو أصحاب الملكيات الضئيلة .

٥ — التنظيم الديموقراطى الزراعى فى تعاونيات إنتاجية .

٦ — إنشاء مزارع للحكومة فى جزء من الأراضى المستولى عليها مع اشتراك العمال فى إدارتها وفى غلتها .

فهذه المزارع تسهل حركة المحاصيل فى الأسواق وتكون قاعدة لتكوين «كادرات» وقادة من المتخصصين الزراعيين .

٧ — حظر بيع أو تأجير الأراضى الموزعة تفادياً لإعادة تكوين ملكيات كبيرة .

٨ — الغاء ديون المزارعين والمستأجرين المستحقة لملاك الأراضى التى يزرعونها وللمرابين والهيئات العامة .

٩ — المساعدة المالية والمادية من الدولة .

إن الاصلاح الزراعى يهيء الظروف الاجتماعية والاقتصادية المواتية لتغيير حالة القطاع التقليدى ولمساعدة الوحدات الزراعية الصغيرة مالياً وفنياً من جانب الدولة والهيئات المحلية وسوف يسهل كذلك مهمة النهوض بالريف وفى هـــذا المجال تستهدف السياسة الزراعية فى الجزائر ما يلى :

- توحيد نظام الأراضى الزراعية .
- زيادة حجم الإنتاج بتعميم الأساليب الفنية الحديثة .

- تنويع الحاصلات الغنية وإحلالها محل الحاصلات الضعيفة .
- زيادة الثروة الحيوانية .

* * *

إن الإصلاح الزراعى فى الجزائر يستهدف : تحرير الإنسان الجزائرى من الاستغلال بكافة صوره وأشكاله ..

وفى تجربة الجزائر - رأينا أنها تأخذ بالأسلوب الديموقراطى المباشر باتباع طريقة التسيير الذاتى ..

فما هو التسيير الذاتى ؟

يعرف ميثاق الجزائر التسيير الذاتى بقوله :

[إن التسيير الذاتى يعبر عن إرادة الطبقات الكادحة للبلاد فى أن تبرز على المسرح السياسى والاقتصادى وأن تكون قوة مسيرة .. فعلى المستوى الاقتصادى ، كون التسيير الذاتى ضرورة التوسع فى الإصلاح الزراعى والتأميمات ، سواء فى ميدان الزراعة أو ميدان الصناعة . وكذلك ضرورة إعادة تنظيم التجارة الخارجية والداخلية ونظام البنوك وعلى المستوى السياسى وضع التسيير الذاتى مسألة العلاقات بين الدولة والحزب ، والنقابات ، والجماهير حسب نظرة جديدة تفرض التو

المستمر للطابع الديموقراطى لكل الأجهزة فى علاقاتها مع الجماهير .
إن الديموقراطية الاشتراكية ، الضرورية يجب أن تظهر وتتمثل فى الواقع بأن توجد فى القاعدة أجهزة ديموقراطية حقيقية لتسيير الاقتصاد . وأجهزة شعبية حقة لإدارة البلديات ، ويوجد نقابات ديموقراطية حقة وإرادة فعالة تحت مراقبة الجماهير] .

ولم يكن محض صدفة أن تبرز تجربة التسيير الذاتى إلى الوجود فى المصانع والمزارع فى وقت واحد ، غداة رحيل الملاك الفرنسيين من المدن ومن القرى ، تاركين مؤسساتهم ومزارعهم معطلة عن العمل .

وبدأت الثورة الجزائرية خطواتها الأولى بقدم راسخة وثابتة فى هذا الاتجاه ، عندما وضعت المصانع والمزارع الشاغرة ، تحت أشراف الفلاحين والعمال ، الذين يعملون فيها ، بمقتضى قرارات مارس سنة ١٩٦٣ المعروفة ، فخلقت قطاعا اشتراكيا ، فى الاقتصاد القومى .

وكانت هذه الخطوة ، نتيجة للبادرة الجماهيرية من الفلاحين والعمال الذين قرروا ، عندما ترك ٨٠٠ ألف أجنبى المصانع والمزارع ، قرروا أن يشرفوا على هذه المصانع والمزارع بأنفسهم لحساب الشعب ، فكونوا لتحقيق هذا الهدف لجان التسيير الذاتى .

وفى كل مؤسسة ومزرعة الآن لجان تسيير ذاتى ينتخبها العمال ،

أو العمال الزراعيون ، مسئولة عن إدارتها ، وتعقد مؤتمرات دورية لكل العاملين فى كل مجال بهدف مراقبة أعمال اللجنة ومحاسبة اللجان أو الأفراد الذين يثبت بمرور الوقت أنهم غير صالحين للقيام بمسئولياتهم وكذلك تحديد برنامج العمل والسهر على تنفيذه .

ولجان التسيير الذاتى هى التى تضع خطة الإنتاج ونظام العمل . وطريقة توزيع الدخل ، وبفضل هذا النظام تم القضاء على الوضع الاستغلالى بالنسبة للعمال ، لأن الدخل كله يوزع بين العمال أنفسهم ، مع اقتطاع جزء منه لعمليات الاستثمار الجديد فى المؤسسة ، وجزء آخر لإضافته إلى صندوق الاستثمار الوطنى الخاص بعمليات التصنيع التى تقوم بها الدولة ، وجزء آخر يقدم لصندوق التضامن المخصص لمساعدة العاطلين .

وهكذا يتوقف أجر العامل على كمية الإنتاج ، فكلما زاد الانتاج إرتفع دخله ، وفى المدة التى امتدت بين ١٢ من مارس سنة ١٩٦٣ و ٢٥ من مارس سنة ١٩٦٤ ، لوحظ أن المؤسسات والمزارع الخاضعة لإدارة العمال والفلاحين ، قد تمكنت برغم كل الصعوبات من أن تنظم الإنتاج وترفع مستواه .

° ° °

إن الشعب الجزائرى يتطلع إلى حياة أفضل ، ومستقبل أرحب .

وفى البلاد الناشئة المستقلة لا تستطيع أساليب الحرية المطلقة المعروفة أن تحقق تطوراً حقيقياً للمجتمع بل إنها تزيد من حالة الفوضى فى الأسواق ، وتقوى إستناد الإقتصاد على الإستعمار ، وتجعل من الدولة أداة لنقل الثروات إلى أيد بالغة الخطورة وتغذى نشاط الطبقات الإجتماعية المعتمدة على الإستعمار .

وتحل الطبقة الرأسماليـــة تدريجياً محل الأجانب فى القطاعات الاقتصادية غير المنتجة وتثرى من هذه النواحى ، أما الشعب فيستمر فى الجهل والبؤس .

ولكن هذا الزمن قد مضى إلى غير رجعة ...

إن الانسان الجزائرى قد إستعاد حقه فى صنع حياته بالثورة .

والإنسان الجزائرى يقرر مصير أمته على الحقول الخصبة ، وفى المصانع الضخمة ، وبالطاقات الهائلة المتفجرة بالقوى المحركة .

ولقد آمن الإنسان الجزائرى بالاشتراكية . . كطريق للتقدم والرقى والتحرر .

ولم يكن محض صدفة أن يبرز البرنامج الذى قدم لمؤتمر جبهة التحرير الجزائرية فى سنة ١٩٦٤ وجه الجزائر العربى الاسلامى ،

يقول البرنامج فى الباب الثالث تحت عنوان «قسمات الجزائر» :

[إن الجزائر بلد عربى إسلامى ، وان تقسيم العالم العربى إلى وحدات جغرافية واقتصادية متميزة لا يمكن أن يؤدى إلى التغاضى عن عناصر الوحدة العربية ، التى شكلت التاريخ المشترك والثقافة الاسلامية واللغة الواحدة .

لقد ناضلت الجماهير الجزائرية ، تلك الجماهير العميقة فى إيمانها ـ ناضلت بقوة حتى تخلص الاسلام من كل الاتجاهات الدخيلة والخرافات التى كانت تخنقه أو تغير من جوهره ، وكانت تصارع دائماً ضد الدجالين الذين أرادوا أن يحولوا الإسلام إلى مذهب للاستسلام وربطت بين الإسلام وبين تصميمها على إنهاء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

إن الجوهر العربى الإسلامى للقومية الجزائرية كان يشكل سداً منيعاً حال دون نجاح الإستعمار فى القضاء على هذه القومية .

ويقع على الثورة الجزائرية عبء أن تعيد للإسلام جوهره الحقيقى ، جوهر التقدم] .

وهكذا نرى أن البرنامج يربط بين إيمان الجماهير الكادحة بالإسلام وبين رغبتها فى القضاء على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان !

كما يعد أحد الواجبات الرئيسية للثورة الجزائرية أظهار الجوهر

التقدمي للإسلام الذي يعده جوهره الحقيق ، والتخلص من كل الإتجاهات الرجعية التي تريد أن تنشر الخرافات والخزعبلات بهدف الحفاظ على الأنظمة الاستغلالية .

° ° °

إن الشعب الجزائري قد عقد العزم على أن يعيد صنع الحياة على أرضه بالحرية والحق ، بالكفاية والعدل ، بالمحبة والسلام .

والشعب الجزائري يملك من إيمانه بالله وإيمانه بنفسه ، ما يمكنه من فرض إرادته على الحياة ليصوغها من جديد وفق أمانيه . . .

كتب للمؤلف

١ — المشكلات العالمية المعاصرة	-	مكتبة الأنجلو المصرية
٢ — التسلل الاسرائيلي في أفريقية	-	» » »
٣ — طريق الانسان العربي الجديد	-	» » »
٤ — العدالة الاجتماعية عند العرب	-	» » »
٥ — أورشليم قاتلة الأنبياء	-	» » »
٦ — الفرد والمجتمع في الاسلام	-	» » »
٧ — أندونيسيا المعاصرة	-	» » »
٨ — جنوب الجزيرة العربية	-	» » »
٩ — المغرب الأقصى	-	» » »
١٠ — المدينة المنورة	-	دار الشعب
١١ — مواقف حاسمة في تاريخ محمد بن عبد الله	-	» »
١٢ — الأنبياء في القرآن الكريم	-	» »
١٣ — المجتمع العربي	-	دار المعارف
١٤ — الديمقراطية عند العرب	-	دار أحياء الكتب العربية
١٥ — معارك عربية	-	الدار القومية
١٦ — بترول العرب	-	» »
١٧ — رواد النهضة العربية	-	» »
١٨ — الجزائر . . مشكلة دولية	-	» »
١٩ — الجزائر كفاح أمة ومستقبل شعب	-	» »

٢٠ — أمريكا وبترول الشرق الاوسط - الدار القومية
٢١ — الاستعمار البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية - » »
٢٢ — تونس المعاصرة - » »
٢٣ — مشكلات عربيــة - » »
٢٤ — حق تقرير المصير - » »
٢٥ — نزع السلاح - » »
٢٦ — المؤامرة على بترول العرب - » »
٢٧ — القرية المصرية بين ماض وحاضر - » »
٢٨ — فى ركب الكفاح - » »
٢٩ — مصابيح على الطريق - » »
٣٠ — عمان .. وإمارات الخليج العربى - » »
٣١ — أفريقية فى طريق الحرية - » »
٣٢ — قضايا عالمية - » »
٣٣ — بترول الجزائر - » »
٣٤ — أضواء على السد العالى - » »
٣٥ — الكونغو فى ركب الحرية - » »
٣٦ — أثيوبيا - » »
٣٧ — يوغوسلافيا والحياد الإيجابى - » »
٣٨ — باكستان المعاصرة - » »
٣٩ — الأمة العربية ورسالتها - » »
٤٠ — ميلاد أفريقيـة - دار الكرنك

محتويات الكتاب

مطبعة العلوم
١٨١ شارع بورسعيد بالسيدة زينب

رقم الإيداع ٣٥٦٣ / ١٩٧٠